مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الأَحقَافِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الأحقاف

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الأحقاف

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾

ابتدأت سورة الأحقاف بِمْثِلِ ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة العنكبوت وسورة الروم. كما تماثلت افتتاحيتها بسورة غافر، وسورة فُصِّلَت، وسورة الشورى، وسورة الزخرف، وسورة الدخان، وسورة الجاثية. فبدأت بقوله تعالى ﴿حمٓ﴾ وهما حرفان من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام حرفين من الأحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأَمَّا عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، نؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وتُلتمس فوائده. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر.

ومن فوائد ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: بأنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[1] ومن فوائد

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

الحروف المقطعة شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[١] مما يبين أن من أوجه البدء بها هو لشد الانتباه والأذهان لما بعدها من البيان، لما في ذلك من التشويق للمتابعة.

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، ليُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[٢] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم والمتلقي والمدعو والموعوظ لما يُراد تعليمه إياه ووعظه وإرشاده ودعوته إليه، أو إخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

بعد أن افتتح الله سبحانه وتعالى سورة الأحقاف بحرفين من الحروف المقطعة بقوله عَزَّ وجل ﴿ حمٓ ﴾ لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، وبما يثبت أنه من عند الله العزيز الحكيم، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، أوضح الله تبارك وتعالى بعد ذلك بأن كتابه القرآن العظيم صادر ومُنَزَّلٌ منه سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فابتدأ البيان بتقرير نزول القرآن الكريم أنه من لَدُنه سبحانه وتعالى العزيز الحكيم ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فإن مصدر كتاب الله تعالى القرآن الكريم هو من الله رب العالمين، المتصف بالعزة والحكمة. بما يفيد النفي التام والقاطع من أن يكون كتاب الله القرآن العظيم من عند غيره سبحانه وتعالى، وهو المتصف بالعزة والحكمة ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فهذا بيان أيها الناس من ربكم عَزَّ وجل بأن مصدر القرآن الكريم ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ من غير شك ولا ريب ولا مرية في ذلك. وبالتالي فلا يستطيع أحد من الخلق ولو اجتمعوا أن يأتوا بمثله، وبهذا ظهر كمال الإعجاز، وأصبح ذلك آية عظيمة على أن القرآن كتاب الله تعالى، بلا شك ولا ريب. وأن مَن له كمال العزة والحكمة فإنه مُتَفرِّد بما يكون منه، ولن يستطيع أحد من المخلوقين أن يأتي بمثله، أو بشي من مثله؛ ولوكان بعضهم لبعض مناصراً وظهيرا.

---

(١) المرجع السابق (١٠٩/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧/١)

وقد أشار تبارك وتعالى إلى القرآن العظيم بقوله عَزَّ وجل ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: أن القرآن الذي أنزله ربكم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو كتاب الله سبحانه وتعالى. وجاء لفظ الكتاب مفرداً ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ ليفيد جنس الكتاب. بحيث إذا أُفرد الكتاب فلا دلالة له إلا على القرآن الكريم. بما يدل على دقته وكمال إعجازه وكمال صوابه وحجته وبيانه وأحكامه، وأن ليس في أحكامه شيء من الظلم ولا الحيف ولا الشطط، ولا النقص، بل كمال العدل في كل شأن وأمر، وأن أحكامه عدل، وحلاله وتحريمه عين العدل، وأن قصصه وأخباره وأمثاله ومواعظه خالية من الزيف والكذب، بما يثبت أنه صِدْقٌ وحقيقة من عند الله تعالى.

ومن دقائق البيان الكريم أنَّ نفي الشك والريبة قد ورد من خلال حصره في أنه من لدنه تبارك وتعالى وليس من غيره ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ فهو ﴿ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ لينفي به كل شك، ويحصر إنزاله له ومنه تبارك وتعالى، مبيناً وموضحاً قوته وعزته وحكمته، فقال تعالى إن ربكم هو المتصف بكمال العزة ﴿ ٱلْعَزِيزِ ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة، بما يفيد أن كل من يريد محاربة كتاب الله تعالى، القرآن العظيم، ورسوله صلى الله عليه وسلم، ودينه العظيم، فإن مآله إلى الهزيمة والذلة والخسارة. والصفة الثانية: ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير، مما يدل على أن القرآن الكريم كتاب مُحْكَم، لا يعتريه نقص ولا تناقض، ومستوفي كمال الحكمة في أحكامه وتشريعه، وآدابه وقصصه ومواعظه وبيانه، لأنه جاء من الحكيم سبحانه وتعالى. كما يفيد ﴿ ٱلْحَكِيمِ ﴾ أنه سبحانه وتعالى حكيم في أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه، من الإيجاد لهم بعد العدم، ثم إلى العدم بعد الوجود، وذلك بموتهم وفنائهم، ثم من العدم إلى الوجود، وذلك ببعثهم وإحيائهم يوم البعث والنشور. فيحاسب ويجازي بحكمته. كما هو الحكيم في أفعاله وأقواله، وتدبيره، وتشريعه، وفي جميع شؤون خلقه عَزَّ وجل.

كما يفيد هذا الإعلام بهاتين الصفتين العظيمتين الجليلتين: التحذير أيضاً لكل من يدبر ويخطط، ويضمر الشر لدينه سبحانه وتعالى، ولكتابه ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين، فإن حكمة الله تعالى في معالجة الأمور تُسقط أهل الشر فيما يدبرون من الشر لدينه وأهل دينه. فإن أمرهم مكشوف عند الله تعالى، وسيجعل كيدهم في نحورهم، ووبالاً عليهم. وأنه العزيز الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. فاحذروا عزته وحكمته بطاعته عَزَّ وجل.

وقد أكد بأسلوب المبالغة أنه سبحانه وتعالى هو العزيز الحكيم ﴿ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ فإنه عزّ وجل هو العزيز لا غيره ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ فقد حصر سبحانه وتعالى تنزيل الكتاب منه وحده لا شريك له، كما أن له كمال العزة والحكمة. وقد أفادت بُنية ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فهو المبالغ في عزته وحكمته. فله العزة المطلقة، وكذلك فهو ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ فله الحكمة المطلقة. فمن كانت هذه صفاته العظيمة، فإنه يستوجب الرهبة من عزته وقوته وقدرته سبحانه وتعالى، وكذلك الإذعان لكمال حكمته، سواء عَلِم بها العبد أو لم يعلمها. وكذلك الرغبة في رحمته التي منها إنزال الكتاب، القرآن العظيم على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هداية وحجة لمن يصدق ويؤمن به. فالحمد والشكر على نعمائه سبحانه وتعالى.

وبهذا أبطل تبارك وتعالى الشك بتقرير الحق في نزول القرآن الكريم، بأنه منه سبحانه العزيز الحكيم، وأفاد هذا البيان عن عزته وعلمه وحكمته سبحانه وتعالى، وأن له كمال العناية بكتابه القرآن العظيم، وأنه ليس محلاً للطعن، وأن هذا القرآن مُنَزَّلٌ ممن له كمال العزة والعلم والحكمة على رسوله الأمين محمد صلى الله عليه وسلم. فلا ريب ولا شك في أنه من عند الله عَزَّ وجل. فَنَفَى بهذا البيان عن القرآن جميع طُعُون الطاعنين، ممن طعن فيه زوراً وبهتاناً، وممن كذَّب به، ورماه بما لا يليق به، فنفى عنه بهذا الإعلام القطعي الشعر، والسحر، وأساطير الأولين، وسجع الكهانة. وكَذَّب بذلك جميع مفتريات المفترين، وطعون الطاعنين، وأثبت مصدره أنه من لدنه عَزَّ وجلا، العزيز الحكيم.

ثم يتابع عَزَّ وجل توجيهاته الكريمة في بيان آياته وبراهين ألوهيته وملكه وتدبيره ووحدانيته سبحانه وتعالى، فيستمر البيان ويَتَوَسّع من الله تعالى في لفت أفكار الْمُخَاطَبين إلى ما في خلق السماوات والأرض من الآيات الدالة على ربوبيته وألوهيته، وملكه وتدبيره. فيقول عَزَّ وجل ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ فما خلق الله تعالى الخلائق كلها ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ سماءها وأرضها، وما فيها وما بينها ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ إلا بالعدل والإنصاف، المنافي للعبث وللباطل والظلم والجور. وورد الوصف بأسلوب الاستثناء ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ الذي اقتضته مشيئته وحكمته سبحانه وتعالى. بما يفيد قصر الخلق على الحق، الذي ينتفي منه العبث مطلقاً. مع إثبات الهدف والغاية في خلقه لجميع مخلوقاته سبحانه وتعالى. ليدرك العباد أن هناك هدف وغاية يجب تحقيقها، وأن وجودهم هو لغاية وهدف، وهو عبادة ربهم تبارك وتعالى. وأن يعرفوا بذلك عظمة خالقهم، وعظمة تدبيره عَزَّ وجل. فإن من نظر بعينه وبصيرته في السماوات وفي الأرض أدرك الحق.

ثم عطف على ذلك البيان تحديد الوقت والزمن، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي بالحق والأجل المسمى، الذي هو الوقت الذي حدده سبحانه وتعالى، وهو يوم القيامة. فيشمل بذلك أجل كل شيء، وأجل كل إنسان. فإن بقاء ما خلق هو لأجل ووقت ﴿ مُّسَمًّى ﴾ أي: محدد عند الله سبحانه وتعالى. ومن دقائق البيان أن في عطف ﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ على ﴿ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ ليستوعبه الاستثناء، الذي يُظهر الحكمة وعظيم قدرة لله تعالى.

ومن جميل البيان أنه سبحانه وتعالى أورد السماء بصيغة الجمع ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ باعتبار تعددها. وأفرد الأرض باعتبار الدنو، والأسفل، والتحت. ليشتد الانتباه إليهما. ثم ذكر ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ على الرغم من أن كلما ارتفع فقد سمى، إلا أنه سبحانه وتعالى أخرج ما بين السماء والأرض وأظهره بلفظ منفرد ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ وذلك لإخراج وإبراز تعدد السماوات، وإظهارها من بين جميع ما ارتفع عن الأرض وعلا، ليحصل الالتفات والانتباه، في سعتها وعلوها، وعظمتها، وكذلك للفت الانتباه إلى كل ما عَلُق بين السماء والأرض. فاستقل بنفسه عن سقف السماء، فلم يتعلق به، واستقل عن الأرض فلم يثبت عليها. وليفيد كذلك التقرير والمبالغة في التخصيص. فإن ما بين السماء والأرض من مخلوقات لا يعلم عددها وأنواعها إلا هو سبحانه وتعالى، سواء مما يراه الإنسان من الأعيان والأجرام، والمتحركات، أو ما يسمعه من الأصوات، كالرعد، وصوت الرياح، أو يحسه كالهواء، فإن كل ذلك ملك لله تعالى. وأنه بالرغم من أن كل ما علا وارتفع عن الأرض فقد سما، وهو داخل في مفهوم السماء، إلا أنه قد تم تخصيصه وتعيينه بالذكر. قال الإمام القرطبي رحمه الله تعالى: والسماء كل ما علاك فأظلك، ومنه قيل لسقف البيت: سماء، والسماء: المطر، سُمّي به لنزوله من السماء[١]

وفي هذا التخصيص شَدُّ انتباه للمُخَاطَبين، ولفتةٌ كريمة للعباد نحو التأمل والتدبر في عظمة مخلوقات الله تعالى التي نزلت بقدرة الله تعالى عن سقف السماء، وارتفعت عن الأرض، فاستقلت بنفسها بين السماء والأرض، وليتأمل العباد عظمة المخلوقات التي تدل على عظمة الخالق العظيم سبحانه وتعالى. ليتأملوا في السماء وعلوها، والأرض ونزولها، وما فوق الأرض، وما في باطنها، وما يجري عليها وما يخرج منها من المياه والنبات. وكذلك النظر والتأمل والتدبر في مخلوقات الله تعالى السَّيَارَة بين السماء والأرض، فاستقلت بنفسها عن سقف السماء، فلم تتعلق به، واستقلت عن الأرض فلم تثبت عليها.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١/١٥١)

ثم يبين تبارك وتعالى حال الذين كفروا مع ما أنذرهم به سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾ فالذين كفروا ولم يؤمنوا كان موقفهم هو الإعراض والتصدي لكل ما أنذرناهم منه، فلم يتعظوا بما أنذرناهم من البعث والحساب والجزاء، ولم يتعظوا مما وعظناهم به من إهلاكنا للأمم السابقة، ولم يتعظوا مما بيناه لهم من خلق السماوات والأرض وما بينهما. فموقفهم هو الإعراض عن كل ما أنذرناهم به. بما يفيد أنهم مستكبرون ومعاندون بهذا الإعراض والإصرار. فاستحقوا العذاب من ربهم عَزَّ وجل.

وبعد بيان الله تعالى لخلقه السماء والأرض وما بينهما بالحق والعدل ، وأنها لأجل مسمى، ينتقل البيان في محاجتهم إلى تكبيتهم بالحجة الدامغة لبطلان شركهم، فيقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم اسألهم ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ قل لهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم إذا كان الأمر كما أخبركم الله تعالى به من أنه سبحانه وتعالى له ملك السماوات والأرض، إذاً ﴿ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ فأخبروني إذاً، وأعلموني عن هذه الآلهة التي تدعونها من غير الله تعالى ﴿ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أروني أي شيء خلقت من الأرض هذه المعبودات التي تعبدونها من دون الله عَزَّ وجل؟ فلا يستطيع عاقل أن يقول بأنها خلقت شيئاً من الخلق. ثم يعضد ذلك بأسلوب وسؤال تقريري آخر ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ أم أن لهذه المعبودات من دون الله تعالى شراكة مع الله تعالى في خلق السماوات؟ سؤال استفهام، مفاده التوبيخ والتقريع، لحصر فهمهم في الباطل، والخطأ. مما يبين علو وارتفاع منزلة منهجية المحاجة في القرآن الكريم، ليتعلم المؤمن كيف يُقيم الحجة، وكيف يحتج للحق، وكيف يهزم الباطل، وليتفتح عقله وذهنه لطرائق ومنهجية الاستدلال والمحاجة بالحق. ومن دقائق البيان أن الله تعالى لم يذكر جواباً منهم، لأنه ليست هناك إجابة إلا إجابة واحدة، وهي: أن كل معبود من دون الله تعالى عاجز عن أن يخلق شيئاً.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى مزيد التعجيز لهم ﴿ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ فإن كان ما تشركون به مع الله تعالى عندكم عليه دليل من كتاب قد وصلكم من الله تعالى ﴿ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ ﴾ أي: من قبل هذا القرآن العظيم، فأخبرونا به، وأتوني به، وإن لم يكن عندكم كتاب يشهد لكم بذلك فمعناه أنكم كاذبون.

ثم جعل لهم خياراً آخر من باب التبكيت والتعجيز لهم ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ فإن لم يكن عندكم دليل من كتاب سابق لهذا القرآن الكريم فأعطونا ما تعتمدون عليه من ﴿أَثَـٰرَةٍ﴾ بقية ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ تحتفظون به عن غيركم ممن سبق. أي: ولو بقية من علم تُثبت صحة ما أنتم عليه. قال الطبري رحمه الله تعالى: الأثارة: البقية من علم، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب[١] والله عَزَّ وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون يعلمون أن ليس هناك شيء من ذلك عندهم، ولكن القصد هو ردهم إلى الحق، بأسلوب الاستدلال بالدليل، فإن لم يكن عندكم دليل على شرككم، وعلى نكرانكم للساعة والبعث والحساب والجزاء، فأنتم إذاً مبطلون. ولذلك استوفى النتيجة بقوله سبحانه وتعالى ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ فإن كنتم صادقين وعلى حق فهاتوا برهانكم، وإن لم تأتوا به، فأنتم إذاً على باطل، وبالتالي عليكم بما جاءكم من ربكم الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما.

وهذا السياق ومعانيه ودلائله تبين أن دين الله تعالى قائم على البراهين، وأنه يتعامل مع الناس في إقامة الحجج على الدليل والبرهان. وبالتالي يربي في أذهان المؤمنين المنهجية العلمية في إقامة الحجج، ومنهجية فكرية وعقلية غاية في القوة عند تعليم الناس، ونقلهم من جهلهم المركب بالمفاهيم الخاطئة إلى الحقائق الساطعة. فهو جدير بأن تُستخلَص مِنهُ هذه المنهجية من القواعد العلمية، لتكون في تبويب علمي دقيق.

ثم ينتقل السياق الكريم في تدرج من بيان عجزهم عن الاستدلال بالدليل والبرهان على ما هم فيه من الشرك، وإنكار يوم القيامة إلى تقرير حالة من اتبع هواه بغير هدى منه سبحانه وتعالى. إذ يدعون عاجزاً لا يستطيع أن يستجيب لمن دعاه بشيء مما يطلبه ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ فهل هناك أكثر ضلالة ممن يتجه لعاجز، فيطلب منه ما هو عاجز عنه. سؤال استدراك عليهم وعلى جهلهم، ووجوب انتباههم لحقيقة فكرهم الخاطئ. فليس هناك أحد أشد ضلالة ممن استحسن رأيه من الهوى الذي لا دليل عليه. فيدعو عاجزاً ليعطيه ما هو عاجز عنه، وفاقد له. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ وهو استفهام إنكاري ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ فهل هناك أضل من هؤلاء؟ سؤال بأسلوب المبالغة التي تنفي أن يكون هناك أكثر ضلالة ممن يطلب من العاجز حاجته. فهو سؤال ينفي به سبحانه وتعالى صواب من اتبع هواه من غير اعتماد على حقائق الهدى التي تأتي من الهادي عَزَّ وجل. فيتجه بالدعاء والطلب والرجاء والخوف ممن ﴿لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١١٥/٢١)

أي: أن عجزه مستمر حتى نهاية الدنيا، بقيام يوم القيامة، وبما يفيد دوام واستمرار هذا العجز عند من تدعونهم من دون الله تعالى حتى فناء الدنيا، والانتقال إلى الآخرة.

ثم يعيدهم سبحانه وتعالى إلى حقيقة العجز ﴿ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ فإن تلك المعبودات غافلة عنهم أصلاً، فلا تعلم عنهم شيئاً، لأنها لا تسمع ولا ترى، ولا تعقل، لكونها جمادات. فأفاد هذا البيان من الله تعالى القطع والجزم بأن ليس هناك أكثر ضلالة ممن اتبع هواه، فعبد وسأل عاجزاً، وترك القادر سبحانه وتعالى. مما يفيد التحذير من مجاراة ما ينشأ عن التقليد الأعمى، ومتابعة الخواطر الضالة، ووسوسة الشيطان، وما تستحليه النفوس الفاسدة، أو ما يصوره الآخرون من طُرق الضلال. فالمقياس هو الدليل. فكل أمر ليس له دليل يهدي إلى الحق على بصيرة فهو باطل. وبالتالي الحث على اتباع دين الله تعالى، لأن القرآن والسنة اشتملتا على كمال الهدى، منهجاً وإرشاداً وتطبيقاً، ووفق الدليل والبراهين.

ثم يخبر الله سبحانه وتعالى عن موقف تلك المعبودات التي عُبِدَت من دونه سبحانه وتعالى يوم الحشر، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ فإذا حَشر اللهُ سبحانه وتعالى الناس يوم القيامة، كانت تلك المعبودات أعداء لمن عبدها ﴿ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ فإنها تعاديهم، لأنها لم ترض منهم أن يتجهوا لها من دون الله تعالى، فيجعل ويُمَكِّنُ اللهُ تعالى بقدرته تلك المعبودات من حمل العداء لمن عبدها، لأنها لم ترض بذلك، وكانت في الدنيا جمادات، ويشمل ذلك أيضاً كل من عُبد من غير الله تعالى من الملائكة والناس والجن، فكل شيء عُبد من دون الله تعالى يكونوا أعداء لمن عبدهم من دونه عَزَّ وجل. فإنهم يعارضون ذلك أشد معارضة، فيقول جَلَّ جلاله ﴿ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ أي: وينكرون أنهم راضين عن اتخاذهم معبودات من دون الله تعالى. مما يبين عدل الله تعالى، وإحقاقه الحق، بإنطاق ما يريد من الجمادات وغيرها.

ثم يخبر تبارك وتعالى بموقف هؤلاء المشركين المعاندين حين يسمعون آيات القرآن وهي تُتلى عليهم. فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴾ فإذا تُليت آيات القرآن على هؤلاء المكذبين المنكرين بيوم البعث، فإنهم يقابلونها بالتكذيب، ونعتها بما ليس منها، من الافتراء والكذب والتشويه والتزوير ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ ﴾ فعندما تُتلَى عليهم آيات القرآن الكريم، الواضحة، والمبينة للحق، والمبطلة للباطل من الشرك وغيره ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴾ إذ لم يجدوا إلا قولهم: ﴿ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴾ فوصفوا تلك الآيات الباهرة بأنها سحر، بل من قوة

تزعمهم للباطل أنهم أكدوا زعمهم وباطلهم بأنها سحر ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: واضح وظاهر مبين، فلا شك ولا مرية فيه. فقد حصروا الآيات في السحر، بما يفيد الجزم بأنها لا تخرج عن السحر. مُضيفين إليه تأكيدهم بأنه ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: واضح وجلي وظاهر الوضوح بأنه سحر. مما يدل على قوة بهتانهم، وافترائهم الكذب، وشدة الإعراض منهم، والصدود عن جميع آيات الله تعالى، مهما كان نوعها وقوتها ووضوحها. مما يفيد أن كفرهم هو كفر عناد، واستكبار، وتطاول على الحق الواضح، المبين.

ثم يزداد الكشف من الله تعالى لحقائق هؤلاء المشركين، وتنقلهم في الحجج إلى الافتراء، والتطاول بغير حق. فيقول عزَّ وجل ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: أو أيقول هؤلاء المشركون أن محمداً قد افترى واخترع هذا القرن؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ سؤال استنكار وتعجب، وانتقال من استنكار نعتهم لآيات الله تعالى بالسحر إلى الانتقال بحرف ﴿أَمْ﴾ لقولهم الآخر بأنه ﴿افْتَرَاهُ﴾ فينتقلون من كذب إلى كذب.

ويرد الله تعالى عليهم بما وجَّهَ به سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ قل لهم أيها الرسول إن كنت كما تقولون وتزعمون أنني افتريته على سبيل ما افترضتم زُوراً وبهتاناً ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فلا تملكون لي من عقوبة الله تعالى شيئاً فتوقعونها عليَّ، أو تردوها عني. فليس لكم في ذلك قدرة. وبالتالي كيف أفتري على الله كذباً؟ من أجل أي مصلحة تكون؟ فكيف أفتري على الله تعالى الكذب وأنتم عاجزون عن رده عني. فلو كنت مفترياً على الله تعالى الكذب لهالني الخوف من عذابه الذي لا تقدرون على رده عني. فهي جملة من البيان الذي يعني العديد من أنواع نفي الافتراء.

ثم ينقلهم إلى علم الله تعالى بهم وبه ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ فربي وربكم أعلم بما تخوضون فيه من الجدال، إذ هو أعلم بمرادكم ونواياكم مما تخوضون وتفيضون فيه من الجدال الذي امتلأ بالافتراء. ومن دقائق البيان أن ورد الوصف لجادلتهم بدلالة ﴿تُفِيضُونَ﴾ الذي يحمل دلالة المبالغة في الطعن والاعتراض، حتى تجاوز الحد، ففاض كما يفيض الماء من لإناء إذا امتلأ. مما يفيد بلاغة البيان، حتى يحمل تصوير جدالهم بأدق الوصف، وأبينه.

ثم ينقلهم إلى اكتفائه صلى الله عليه وسلم بشهادة الله تعالى عليه وعليهم، وعلى مقصدهم من جدالهم، وخوضهم الباطل، فقال تبارك وتعالى قل لهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تكفيني شهادة الله تعالى بيني وبينكم، بما يعني، فإنه يشهد لي بأن القرآن العظيم مُنَزَّل من عنده عَزَّ وجل، وأني قد أبلغتكم، واجتهدت في ذلك، وأما أنتم فيشهد عليكم ربكم بما كان منكم من التكذيب، والافتراء على القرآن بالسحر. بما يعني التهديد والوعيد لهم بما عند الله تعالى من العقوبة.

ثم يحفزهم ويرغبهم إلى التوبة بعد هذا الوعيد والإنذار، لعلهم يتوبون، فيقول لهم ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يقبل التوبة، ويغفر ويرحم، لأنه غفور لمن تاب، ورحيم بمن أناب إليه، ورجع عما كان عليه من الذنب، فيرفع عنه جزاء إثمه ومعصيته، ويقبل توبته برحمته تبارك وتعالى. فإن الله تعالى كثير المغفرة، وكثير الرحمة. لأن ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ من صيغ المبالغة، فإنه سبحانه وتعالى يرحم عباده المستغفرين التائبين. بما يفيد أن دلالة ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ أنه يغفر لكم ولغيركم، ويرحمكم إن عدتم إلى رشدكم. وفي هذا تشجيع لكل مذنب ومقصر أن يتجه إلى التوبة والإقلاع عن المعصية، واستبدالها بالخير. وهو أعظم وسيلة ودافع لإصلاح السلوك من الله الغفور الرحيم سبحانه وتعالى. فالحمد لله رب العالمين على هذه النعمة الجليلة، بأن ربنا غفور رحيم. فلا يأس ولا قنوط من رحمة الله تعالى مهما بلغت الذنوب مع التوبة واستبدال الشر والمعصية بالخير والطاعة والامتثال.

﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤ ﴾

يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالمزيد من الإيضاح والبيان للمشركين الصادين عن دينه سبحانه وتعالى ﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ ففي مزيد من عناية الله تعالى بتوجيه العباد وإرشادهم يقول عَزَّ وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قُلۡ ﴾ أي: قل لهؤلاء المجادلين في آيات الله تعالى وحججه وبراهينه ﴿ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ لست بأول رسول يُرسله الله تعالى لعباده. فإن شأني وشأن الرسالة التي أمرني الله تعالى بها إليكم هو مماثل لمن سبقكم من الأمم. فليس شأناً مخترعاً ومبتدعاً، من غير مثيل له في شأن الأمم السابقة لكم ﴿ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ لست بأول رسول، فقد كانت قبلي رُسُل أرسلهم الله تعالى في الأمم السابقة لكم. فيعيدهم بذلك إلى حقائق المرسلين السابقين في الأمم السالفة، وبالتالي أين وجه الغرابة في ذلك ومعي هذه الآيات والحجج التي أرسلني الله تعالى بها إليكم.

ثم ينتقل بهم إلى مستقبل الأيام ﴿ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ ﴾ فلا أعلم بماذا سيقضي الله تعالى في شأني وشأنكم في الدنيا. وأما في الآخرة فمتقرر أن من كفر ففي النار، ومن آمن ففي الجنة. وهو إخبار يعطي عدداً من الفوائد. إذ يحمل التخويف والتحذير. ويساوي بينه وبينهم في علم المستقبل، بما يفيد فأنا مثلكم لا أتعالى عليكم بعلم لم يخصني الله تعالى به. فلا أخبركم إلا بما يخبرني الله تعالى به. فإنما أنا رسول الله إليكم. إذ يقرر لهم ذلك بما أمره الله تعالى أن يقوله لهم، وهو ﴿ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ فما أنا إلا رسول أتبع ما يأمرني الله تعالى به عن طريق ما يُوحِي إليَّ به العزيز الحكيم ﴿ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ وكذلك ما أنا إلا مُنْذر لكم من عذاب الله تعالى، وموضحه ومبينه لكم، فينفي به ما افتروه عليه المفترون من أنه ساحر وشاعر، وكذاب، صلى الله عليه وسلم.

وقد ورد هذا البيان بأسلوب القصر الذي ينفي به أن تكون له سلطة على إرغامهم على ما يريد، بما يفيد أن مهمتي منحصرة في إبلاغكم بالحق، وأن أنذركم من عقاب الله تعالى إن لم تستجيبوا لطاعة ربكم. وأنتم وشأنكم، فإن أطعتم غفر الله تعالى لكم ورحمكم، وإن كفرتم فالعقاب سيحل بكم. مما يبين أن مجال ومهمة الرسول والداعية والناصح هو البيان، والمحاولة، وليس له إرغام أحد من الناس على ما يريد، فكل إنسان شأنه بنفسه.

ثم من لطف الله تعالى أنه يزيد من البيان والحوار، ومحاولة إقناعهم، فيأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله عَزَّ وجل ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ

إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ أخبرهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بأن تقول لهم ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ تأملوا وتفكروا فيما إن كان هذا القرآن وما أنذركم هو من عند الله تعالى ﴿وَكَفَرۡتُم بِهِۦ ﴾ كيف سيكون حالكم وشأنكم عند الله تعالى. فردهم إلى التفكر، وعدم العناد، لأنهم في قرارة أنفسهم يدركون أنه من عند الله تعالى، كما قال عَزَّ وجل في سورة الأنعام ﴿ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ ثم نقلهم إلى شهادة من سبق فيهم الكتاب ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ ﴾ فماذا ستقولون إن شهد شاهد من بني إسرائيل على هذا القرآن بما في التوراة من التصديق بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿فَـَٔامَنَ ﴾ فصدق به هذا الشاهد، وآمن.

بينما أنتم تتعالون وتتكبرون ﴿ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ ﴾ على الحق. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: غير أن الأخبار قد وردت عن جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن ذلك عُنيَّ به عبدُ الله بن سَلام، وعليه أكثر أهل التأويل، وهم كانوا أعلم بمعاني القرآن، والسبب الذي فيه نزل، وما أُريد به[1] فالمقصود بالشاهد من بني إسرائيل هو عبدالله بن سلام رضي الله عنه. فشهد بأن محمد صلى الله عليه وسلم مذكور في التوراة أنه رسول من الله تعالى. فكيف يكون الجواب منكم؟ فإنها حجة دامغة بالغة.

ثم يعظهم بما يحفزهم ويرغبهم في الإيمان ويحذرهم من الإصرار على العناد والاستكبار على الحق ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فإن الله تعالى لا يوفق القوم الذين يظلمون الحق، فاحذروا أن يحجب الله تعالى عنكم هدايته فلا يوفقكم لدينه، بأن يطمس على قلوبكم، جزاء وفاقاً لظلمكم. فقرر لهم أصل من أصول العقاب، لمن أصر على الظلم مع بيان الحق ووضوحه. وهذا غاية الوعظ وإقامة الحجة. مما يبين لطف الله تعالى في عدم الاستعجال على الظالمين بالعذاب، لحلمه ورحمته سبحانه وتعالى، ولكن إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً وبيلا.

ثم يُخبر الله تعالى برد وجواب الكافرين، الذي يوضح ويؤكد عنادهم واستكبارهم وإصرارهم على الكفر. فقال تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴾ فقال الذين كفروا وتَزَعَّمُوا الكفر في خطاب لهم مع المؤمنين ﴿ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٣١/٢١)

﴿ مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ لو كان الإسلام فيه خير لابتدرنا الدخول فيه، وما جعلنا ضعفاء الناس يسبقون إليه. بما يفيد نحن أعلم بخيريته، ولذلك لم نبادر له وتركناه للضعفاء، مما يبين أن من أسباب تركهم الدخول في الإسلام هو تعاليهم في أنفسهم، واستحقارهم واستصغارهم لمن بادر بالإسلام، فكيف نتابعهم، وهم الضعفاء، فنأتي بعدهم؟ مما يبين عمق الاستكبار وتوغله في عقولهم وقلوبهم. مع إدراكهم ويقينهم بأن دين الله تعالى حق لا ريب فيه، كما قال تعالى في سورة الأنعام ﴿ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣ ﴾ مما يؤكد ويبين أن الاستكبار، واستحقار الآخرين يجر إلى التمرد والعصيان على الحق والصواب، وأنه يُفَوّت على الإنسان الخير والمكاسب والرشاد في كل شأن من شؤون الدين والدنيا. فنعوذ بالله من الكبر.

ثم يخبر الله تعالى بحالهم إن لم يهتدوا، فقال تعالى ﴿ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ ﴾ فإن لم يتعظوا ويتواضعوا ويدخلوا في دين الله تعالى ﴿ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٌ قَدِيمٌ ﴾ سيتجه طعنهم في دين الله تعالى، وفي القرآن العظيم، وفي الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، بأن يقولوا ﴿ هَٰذَآ إِفۡكٌ قَدِيمٌ ﴾ بأن هذا القرآن وهذا الدين هو كذبة قديمة. أي: من أساطير الأولين. فسوف يصرون على طعنهم في القرآن وفي الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي هذا الإخبار من الله تعالى ما يفيد إظهار الحال التي سيكونون عليها. مما يُعَلِّم المؤمنين أهمية إدراك احتمالات القضايا، ليحسن التعامل معها على أي وجه تكون.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى العلاقة والقواسم المشتركة في التكذيب عند أهل الباطل السابقين واللاحقين، بما أنزله الله تعالى على موسى بن عمران عليه السلام، وهو كتاب التوراة. فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ ومن قبل هذا القرآن العظيم قد أنزلنا كتابنا التورة على موسى عليه السلام ﴿ إِمَامٗا ﴾ أي: قدوة وأسوة وإماماً لبني إسرائيل، يمتثلون ويقتدون به، وكذلك ﴿ وَرَحۡمَةٗ ﴾ لمن آمن بالتوراة. ونعته سبحانه وتعالى بالرحمة، لأنه يتحقق لمن أخذ به رحمة الله تعالى في كل شيء.

ثم يبين سبحانه وتعالى العلاقة بين هذا القرآن العظيم الذي أنزله وبين كتاب التوراة السابق له، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ ﴾ وهذا القرآن مصدق لما سبق من الكتب، فلا يتعارض معها، مما يبين ويؤكد أنها جميعاً من مصدر واحد، فجميعها من عند الله تعالى. بما يفيد لو تأملوا ذلك لأدركوا بهذا التصديق والتوافق أن هذا القرآن هو كتاب الله تعالى، مثله مثل التوراة وغيرها من الكتب السابقة. ومن

دقائق البيان أن ورد التصديق دون تخصيص التوراة بالتصديق ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ حتى يستوفيها ويستوفي جميع كتب الله تعالى السابقة للقرآن العظيم. وفي هذا تعظيم لشأن القرآن الكريم بأنه المصدق لما قبله من كتب الله تعالى. وفيه بيان بأن أصول دين الله تعالى واحدة، وإن اختلفت في تفاصيل التشريع والعبادات، نوعاً وكيفية.

ثم يبين خصوصية القرآن وما انفرد به عن غيره، فيقول سبحانه وتعالى ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ فأول خصوصياته أنه ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ فهو كتاب الله تعالى باللغة العربية. مما يبين مكانة اللغة العربية، إذ نزل بها أعظم الكتب، وهو القرآن الكريم، وهو المهيمن على ما قبله من الكتب، والمصدق لها، وبالتالي فإن كل شيء منها مخالف للقرآن الكريم ومضاد له، فهو تحريف فيما سبق من الكتب. فالضامن لصدق ما فيها هو توافقها مع القرآن الكريم.

وثاني تلك الخصوصية للقرآن العظيم أنه منذر لجميع الظالمين أنفسهم بالكفر ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ نذير لجميع الذين ظلموا، ليشمل جميع جنس الكافرين. فليس مخصوصاً به العرب، وليس لأمة دون أمة. لأنه نذير لجميع الذين ظلموا، فدلالة المستهدفين به ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ تجمع الجميع، فهو عالمي الرسالة، للعالم أجمع. وهذا من دقائق البيان وسياقه وتراكيب ألفاظه التي تُظهر إعجاز بلاغته.

وثالث تلك الخصوصيات للقرآن الكريم أنه ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ومبشر لمن اتبعه بكل خير. وهي الجنة في الآخرة، والفضل والتوفيق والتسديد ومعية الله تعالى لهم في الدنيا. والبشارة هي الإخبار بما يسر من الخير. وقد قابل بيان البشرى للمحسنين بالإنذار للظالمين. ليفيد اشتمال القرآن الكريم على التوازن في الترهيب والترغيب. وقد سَمَّى الله تبارك وتعالى من أطاع وقَبِل الدين بالمحسنين، لأن المحسن هو الذي ترسخ فيه الإحسان حتى صار صفة له، وهو من يعبد الله تعالى كأنه يراه، فينعكس على شدة ملازمته لطاعة ربه تبارك وتعالى، فهو يستحضر مراقبة الله تعالى له في حياته، مما يجعله يُحسن الاعتقاد والعمل بفعل الخيرات من الطاعة لله تعالى، ومع العباد، وفي كل شأن من شؤون حياته.

وبعد بيان عقاب أعداء الله تعالى يذكر عَزَّ وجل إنعامه على أوليائه، فيقول تبارك وتعالى﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إن الذين صدقوا اعترافاً وإيماناً بأن ربهم الله تبارك وتعالى، ثم أسندوا إلى ذلك القول الاستقامة على دين الله تعالى. فإن الملائكة تتنزل عليهم عند موتهم واحتضارهم، مبشرين لهم بأن لا يخافوا مما هم قادمون عليه، وأن لا يحزنوا على ما هم ذاهبون عنه

من الدنيا. وتبشيرهم لهم بالجنة التي وعدهم الله تعالى بها. وهذا من عظيم كرم الله تعالى أن جعل الملائكة تتنزل عليهم مبشرة لهم عند احتضارهم، ليكونوا في كمال الطمأنينة والفرح والسرور، وهم يغادرون الدنيا إلى أول منازل الآخرة.

وقد استهل البيان هذا الإكرام بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ لتأكيد وتقرير ما بعده من عظيم الامتنان وعظيم البيان، ثم أخبر الله تعالى بأوصاف المكرمين من عباده، وهم ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ فأول صفة هي: ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ فأظهروا إيمانهم القلبي بالقول ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ فقرروا الإيمان بأن الله تعالى هو ربهم، وليس لهم رب سواه. فآمنوا بالله تعالى رباً، وبالتالي صَدَّقوا بكل ما ورد عن الله تعالى، فشمل قولهم ﴿ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ الإيمان بالله تعالى وبجميع ما ورد عنه سبحانه وتعالى، فآمنوا بأركان الإيمان كلها. وأضافوا إلى الإيمان الصفة الثانية: وهي: استقامتهم على دين الله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ وأفادت ﴿ ثُمَّ ﴾ الواقعة بينهما ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ الترتيب، بما يعني ويفيد أن الإيمان هو الأصل، وهو الأساس وهو القوة، ومنه تنطلق المتابعة وكمال الاستقامة بالطاعة.

وأفاد قوله عَزَّ وجل ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ العمل بمقتضى دين الله تعالى من الطاعة. كما أفاد ذلك أن دين الله تعالى مستقيم، لا اعوجاج فيه، فمن سلكه فقد استقام أمره وشأنه في أمور الدنيا ثم الآخرة. فيكون حالهم هو الجمع بين الإخلاص لله تعالى، ولزوم الطاعة والامتثال لدين الله تبارك وتعالى. فثبتوا في إيمانهم، وانطلقوا بالاستقامة على دين الله تعالى. فهؤلاء لهم من الله تعالى الضمان العظيم، بأنه يمنع عنهم حصول الخوف والحزن ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ فقد خصهم الله تعالى بامتناع الخوف والحزن عنهم، وهما العاملان الرئيسان اللذان يترتب عليهما السعادة. وأما الشقاء فهو كائن لمن أبعده الله تعالى عنهما. فإنهما ثمرة ونتيجة، محلها وموقعها القلب. فمن أدرك هذين الشرطين ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ وعمل بهما فإنه يحصل على الأمن ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ الذي هو ضد الخوف فيما هو حاضر وقادم، فالخوف متعلق بالحاضر والمستقبل. وكذلك يحصل على طمأنينة النفس مما مضى ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ والذي هو ضد الحزن. وهو متعلق بالماضي، مما يفوت الإنسان من مطالب الدنيا، أو يتحسر على فعله أو تركه، وقد نفى تبارك وتعالى أن يحصل لهؤلاء ما يخافون منه، من سوء المصير، أو ما يحزنون عليه مما فاتهم من الدنيا. فقد نفى الله تعالى عنهم ذلك، وبالتالي فقد امتلكوا الأمن، وطمأنينة النفس التي هي السعادة بعينها.

ومن جميل البيان الممتلئ بالرحمة واللطف أن قال عنهم سبحانه وتعالى ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي: فلا تتوقعوا حصول المكروه الذي تخافون أن يقع بكم، ولا تنشغلوا وتفكروا فيما يفوتكم من نصيب الدنيا فتحزنوا عليه، أو مما تخافون عليه من ضياع الذرية، أو المال، أو الأهل، أو غير ذلك، فلن تنشغلوا بالحزن على ذلك. وفي هذا ما يغرس في المؤمن الطمأنينة والتوكل على الله تعالى، والاجتهاد في طاعته عَزَّ وجل، وأن يبذل الغالي والنفيس أمام هذه البُشْرَى التي تمثل الفوز العظيم من الله تعالى، فهو فوز لا يُعَادل بأي فوز.

بل ومن دقة البيان أن نفى جنس الخوف بأكمله، لأن النفي دخل على نكرة ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ وأيضاً هي بشارة لأهل الميت في ميتهم، فيما يعرفونه من حال طاعته، بأنه لا خوف على ميتهم إن كان من المؤمنين المتقين، فلا تخافوا عليهم من شر قادم. ونفى كذلك الحزن الذي تنكسر فيه النفس من الحسرة والندامة ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ والحزن يكون بعد حصول ما يستوجب حصوله، كفقد أمر نفيس، وأما الخوف فهو سابق للمتوقع حصوله، من قادم متوقع مظنون، فالخوف يكون على شيء متوقع قدومه وحدوثه، وأما الحزن فيكون على شيء وقع وانتهى. وجاء نفي الحزن بصيغة الفعل المضارع ﴿ يَحْزَنُونَ ﴾ ليفيد الحال والمستقبل، فإنه أمر عظيم، ومثوبة عظيمة، بأسلوب معجز في بيانه وبلاغة تراكيب ألفاظه. فسبحان الله العظيم الكريم، الذي أعجز ببيانه عباده أن يأتوا بمثله. فاللهم اجعلنا من أوليائك الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ثم يخبر تبارك وتعالى بالمزيد من الإنعام على هؤلاء الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، فقال تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ فهؤلاء الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم المصاحبون للجنة، وهم أهلها وأصحابها، فلهم صحبة الجنة، بالعيش فيها العيشة الخالدة التي لا يخرجون منها أبداً. فلهم نعيم الله تعالى بدخولهم الجنة، وامتناع ما تحصل به الكآبة والهوان والخزي، والخوف والحزن، فهؤلاء هم المصاحبون للجنة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ثم ذكر تبارك وتعالى سبب وعلة ذلك ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ جزاء وثواباً لما كان منهم من القول والعمل، والاستقامة على منهج ربهم عَزَّ وجل. فإن هؤلاء هم أهل الجنة، المصاحبون لها، فأصبحوا الساكنون والماكثون فيها أبداً، فلا يخافون زوالها، ولا هم بِمُخْرَجِين منها، وبالتالي لن تنقص عليهم لذتهم ومتعتهم، فهي لذة دائمة، مصاحبة لأصحاب الجنة. وفي هذا أشد الترغيب والتحفيز على الإيمان والعمل، وتحقيق قولهم ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ
حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟
يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا
يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ
دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ
فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ
وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى جانب عميق الأهمية في دين الله تعالى، وهو البر بالوالدين، فيقول تبارك وتعالى موجهاً المؤمنين إلى الإحسان والبر بوالديهم ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ يخبر الله تعالى عن عظيم عنايته برعاية الوالدين من جهة أولادهم المؤمنين، حتى وإن كان الوالدان كافرين. فيقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ﴾ فقد قضينا بأمرنا لجنس الإنسان أن يبروا بوالديهم، وأن يعطفوا عليهما بالقول والعمل. وورد الأمر بالإحسان إليهما بالتوصية ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ والتوصية أمر يقتضي الوجوب من الله تعالى، غير أنه ورد بدلالة التوصية التي تعني العناية الخاصة من الْمُوصِي سبحانه وتعالى، بأن يتولى الْمُوصَى جُلَّ اهتمامه ورعايته لمن أوصاه ربه بهما. والتوصية هي توجيه يقتضي المبادرة إلى الغير بما وصَّى به الموصِي، وهو الله سبحانه وتعالى، فما أجلها من وصية، وما أعظمه جَلَّ جلاله مِن مُوصِي سبحانه وتعالى. وأما محل الوصية فهما الوالدان، من غير طلب منهما بما تم التوصية به، ولكن كرماً وتكريماً من الله تعالى لهما، لقاء تربيتهما وعنايتهما بأولادهما. بما يستوجب الإحسان إليهما.

وأما الذين أوصاهم الله تعالى فهم الأولاد، وموطن ومنهج الوصية التي ينطلقون منها هو الإحسان. فحكم الوصية هو حكم الأمر الذي يقتضي الوجوب، بأن الإحسان للوالدين واجب مفروض من الله تعالى.

ومن رفعة مقام التوصية والمُوصَى بها أن الذي أمر بها هو الله سبحانه وتعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ بضمير المتكلم الذي هو الله سبحانه وتعالى، والذي يفيد التفخيم والتعظيم من المتكلم عَزَّ وجل، ليعطي الوصية شأناً ومكانة بفعل الأمر ﴿ وَوَصَّيْنَا ﴾ وبتفخيم الذي أوصى بها. بل ومن تعظيمها أن وردت لجنس الإنسان ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ لإفادة التحضيض والتعظيم لها، بالرغم من أن أكثر الناس من الكافرين. ليدل ذلك على التعظيم لشأن الوالدين.

كما ورد اسم المُوصَى بها بلفظ الوالدين ﴿ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ فلفظ الوالدين يشير إلى الولادة، وعناء الحمل، وعناء مصاريف المعيشة، والرعاية للحمل، ثم للمولود بعد أن يُولَد، ثم لمراحل نشأة الطفولة، وما فيها من العطف والحفظ والرعاية والعناية والتربية من الوالد والوالدة. كما أشارت إلى ذلك دلالة قوله تعالى ﴿ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ فإنهما الأصل لهذا الولد، والولد هو الفرع منهما. ثم ورد بيان المطلوب الذي يجب على الولد أن يقوم به تجاه والديه، فوردت بكلمة جامعة لمجامع الخير كله، وهي الإحسان ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ﴾ وهي مفردة جامعة لجميع أشكال وألوان ودرجات البر، بالقول والفعل. فيجب ألا يرى الوالدان من الولد إلا أنواع الإحسان إليهما، فيجب أن لا يروا منه شيئاً من أضداد الإحسان.

ثم يتدرج البيان إلى علل وأسباب هذا البر، وهذه التوصية من لدنه سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا ﴾ فقد حملته أمه في بطنها وهي متحملة ما تكره من مشقة الحمل وثقل الحمل، والمعاناة عند قيامها وجلوسها، وعند حركتها من أجل هذا الجنين الذي تحمله في بطنها. ثم بعد معاناة الحمل تأتي معاناة الولادة ﴿ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ فقد أنجبته وهي تعاني ما تكره من الأوجاع. فقد لقيت عند الولادة ما تكرهه من متاعب الولادة التي لا تعرفها إلا من ولدت بمولود. فذلك جدير بأن تُكرَم ويُحسن إليها لقاء ما تحملت من تلك المشاق في سبيله. فهذا بيان لعلة وسبب التوصية بالوالدين إكراماً وإحسانا. فينبه سبحانه وتعالى عباده على ما غاب عنهم. مما يفيد أهمية الموعظة، وأهمية التذكير، وأهمية التعليل عند الحث على الشأن والأمر والخير والبر. فإنه أدعى في استثارة النفس، واستثارة الانتباه، وإزالة الغفلة، وتوضيح علل الواجب.

ثم يذكر تبارك وتعالى المعاناة الزمنية، فيخبر عَزَّ وجل عن مدة الحمل والرضاعة ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ فإن الزمن والوقت الذي استغرقه الحمل والرضاع كان ثلاثون شهراً، فإنه زمن ليس بالوقت

اليسير، وهي تتحمل المشقة طوال هذا الزمن. والمقصود بقوله تعالى ﴿ وَحَمْلُهُۥ ﴾ أي: زمن وجود الجنين في بطن أمه وهي تحمله، وتحمل معه عناء ومتاعب الحمل. أي: هو زمن مشقة الحمل مع مشقة ﴿ وَفِصَـٰلُهُۥ ﴾ الذي هو زمن الرضاع حتى فطامه عن حليب ثديها. فإن مدت ذلك الرضاع مع الحمل ﴿ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ﴾ وهي تمثل زمن ومدتي الحمل والرضاع. بل إن مجموعها يشكل أقل مدة للحمل، مع أكثر مدة للرضاع.

فأكثر مدة الرضاع سنتين، أي: أربع وعشرون شهراً، وأقل مدة الحمل تكون بذلك ستة أشهر. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: واعلم أن هذه المدة قُدِّرت لأقل الحمل، وأكثر الرضاع[1] وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: وهذا دليل على أن أقل الحمل ستة أشهر، لأن مدة الرضاع إذا كانت حولين لقوله تعالى في سورة البقرة﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ بقيت للحمل ستة أشهر[2] وهذا من دقائق البيان في مدة الحمل، ومدة الرضاع، والذي أظهر معاناة الأم بتلك المدة الطويلة من المعاناة، وما يقوم به الأب تجاه أم أولاده، وتجاه المولود من العناية بهما. وهذا يستوجب من الولد أن يكون في غاية البر مع والديه.

وقد أورد البيان الكريم حال الأم في الحمل وفي الرضاع، وما تُكابده من تلك المشقة. بينما جاء البيان بدلالة الوالدين في الوصية، ولم يأت بصيغة الأبوين ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ﴾ وذلك لتغليب الوالدة، وإظهار معاناتها المخصوصة في الحمل والولادة والرضاع. وفي نفس الوقت كانت الوصية بالوالدين معاً في الإحسان بهما، بالرغم من أن الأب لم يتم تخصيصه هنا في الوصية كما خص الأم بالحمل والولادة والرضاع ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ﴾ وذلك لإظهار خصوصية شأن الأم، وإظهار تبعية الوالد للوالدة في هذا الشأن. على أساس أن الأب هو السبب في حمل الأم، وهو الذي يحمل هم زوجته والعناية بها، وكذلك يحمل هم الحمل والمحمول، وما يتبع ذلك من مشقة العناية بزوجته، وما يتطلب شأنها من جميع أنواع الرعاية، فهو شريكها حتى فيما تحمله من معاناة ما تكره، ثم كذلك استمرار مسؤوليته عن الأم وعن جنينها التي لا تنفك عنه تبعاً لتوالي المسؤوليات المتعاقبة، وفق تعاقب مراحل نمو المولود، وما يحمله من معاناة التربية، طوال مراحل نموه المتعاقبة، حتى يصبح رجلاً قائماً بنفسه. فأظهر البيان الكريم خصوصية الأشد معاناة من الوالدين وهي الأم. وأصبح الأب تبعاً لها في هذا الشأن. وهذا من دقائق البيان في إظهار المخصوص بما خصه، وإظهار المعية

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٦/٧)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٢٩٨/٤)

بما ينال الأب من المشاركة. فذلك دقة وبلاغة إعجاز في البيان. وبيان للعلل والأسباب التي تحث الولد على الإحسان لوالديه.

ثم انتقل البيان الكريم إلى حال هذا المولود الذي قد أصبح كبيراً، وصاحب قدرة وقوة جسدية، وقدرة عقلية، وتكاملاً في جميع جوانب شخصيته، فقال عَزَّ وجل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ حتى إذا قوي جسماً وسداداً في العقل والرأي ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ وكمل عقله بتمام سن الأربعين. مما يفيد أن كمال الرشد وسقفه هو الأربعين من العمر. وهي: المرحلة التي يبلغ فيها الرجل قوته الجسمية، وكمال عقله. قال الفيروزي أبادي رحمه الله تعالى: حتى يبلغ أشده أي: يضم أوله، أي قوته، وهما ما بين ثماني عشر إلى ثلاثين سنة[١] وقال ابن منظور رحمه الله تعالى: واحدة الأشد شِدَّة، والشدة القوة والجلادة، والشديد الرجل القوي، وقال الزجاج رحمه الله تعالى: هو من نحو سبع عشر إلى أربعين، وقال مرة: هو ما بين الثلاثين والأربعين[٢] وقال السيوطي رحمه الله تعالى عن معنى أشده: هو كمال قوته وعقله ورأيه، أقله ثلاث وثلاثون سنة، أو ثلاثون. ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أي: تمامها، وهو أكثر الأشد[٣] مما يفيد أن الإنسان عموماً: إنما يَكْمُلُ تمام رشده في الأربعين من عمره. أي: هو الحد الأقصى لذلك.

ثم يخبر الله تعالى حال هذا المؤمن عندما يبلغ سن الأربعين. فقال عَزَّ وجل عنه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ قال معترفاً بكرم الله تعالى عليه، ونعمته التي أسداها إليه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ أي: أنه سأل الله داعياً ملتمساً أن يلهمه ويوفقه لأن يشكر إنعام ربه سبحانه وتعالى عليه، من الهداية والتوفيق. إذ جمعت دلالة ﴿نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ جميع الإنعام بأكمله، فاستوعب الاعتراف بجميع ما هو فيه ووالديه بأنه من فضل الله عَزَّ وجل.

ثم أعقب ذلك السؤال بسؤال آخر يسأل الله سبحانه وتعالى فيه العمل الصالح ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ ووفقني وأهديني وألهمني أن أعمل بالصالحات من الأعمال التي ترضيك عني يا ربنا. وهنا

(١) الفيروزي أبادي، القاموس المحيط (٣٠٥/١)

(٢) ابن منظور، لسان العرب (٢٣٥/٣) ملخص

(٣) السيوطي، تفسير الجلالين (٥٠٤)

ربط العمل الصالح برضا الله تعالى عنه. وليس بما ترضى به نفسه، فليس وفق تقديره، بل وفق تقديرك ومنهجك ومرادك يا رب. لأن تقدير الإنسان يعتريه النقص، وتقدير الله يعتريه الكمال والتوفيق والتسديد. ولأن العمل حتى وإن كان من حيث شكله وظاهره موافقاً لشريعة الله تعالى إلا أن الشائبة والنقص فيه قد يكون من حيث النية، فقد يدخله الرياء والسمعة. مما يبين دقة البيان. من أن يكون منهج المؤمن وفق مرضاة الله تعالى، وليس وفق ما يرضاه العبد.

ثم سأل الله تعالى الصلاح لذريته ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ﴾ وأسألك يا ربي أن تصلح شأن جميع ذريتي، بأن يكونوا من أهل الصلاح، الذين يلتزمون بالعمل الصالح الذي أمرتنا به، وأن يستكثروا ويتمكنوا من متابعة دينك القويم، حتى يصبح الصلاح سمة لهم. مما يفيد افتقار العبد لله تعالى حتى فيما يخص من هم تحت يده ورعايته. فالتربية وحدها لا تكفي في صلاح الأولاد، فلا بد من تظافر هداية الله تعالى وتوفيقه وعونه مع جهود الوالدين في التربية، فهما قاسمان مشتركان: والأخذ بالأسباب أحدهما، والثاني: سؤال الله تعالى الهداية والصلاح.

ثم بعد ذلك توجه هذ المؤمن لربه بتوبته من كل تقصير وخطيئة، فقال ﴿إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ إنني عدت إليك تائباً، وتاركاً كل ذنب كان مني. فتقبل توبتي، وأزل عني ما يلحقني من عقوبتها، فهي توبة شاملة لطلب المغفرة من كل ذنب وخطيئة، مع العزم على التوجه إلى تمام الطاعة والامتثال. ثم الإعلان منه بالاستسلام لله تعالى ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فإنني ممن استسلم وانقاد لك يا رب، بطاعتك والإخلاص لك وحدك لا شريك لك.

فقد تضمنت هذه الآية الكريمة جوانب عديدة من الفوائد العظيمة التي تبينت مما سبق بيانه. فقد بينت الأسلوب والمنهج الصحيح الذي يجب أن يكون عليه المسلم، من خلال هذا النموذج من العباد الذين عرفوا حقوق الله تعالى عليهم، ومدى فقرهم إلى ربهم عَزَّ وجل. كما يفيد ذلك أن على المسلم أن يزداد طاعة وحرصاً على التوبة والاستسلام لله تعالى، خاصة إذا بلغ الأربعين. لأنه بلغ تمام الأشد، الذي لا عذر له من بعده. وهو دعاء لكل من بلغ هذه السن، بأن يكرره ويمتثل به قولاً وعملاً. فإنما بينه الله تعالى بهذا البيان العظيم الكريم ليرشد عباده لطريق الصلاح والنجاة بالاستقامة. فنسأل الله تعالى العون والتوفيق والهداية وحُسن الخاتمة.

ثم يزداد البيان الكريم من الله العزيز الحكيم في إثبات توفيقه تبارك وتعالى لهذا الصنف من الناس، فيقول جَلَّ جلاله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ

وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ فهؤلاء من الناس هم الذين نتقبل الحسن من أعمالهم الصالحة، ونصفح عَمَّا يكون من تقصيرهم، فلا نعاقبهم عليه، فإنهم منتظمون في جملة أصحاب الجنة،، أي: كائنون معهم فيها.

وقد بدأ البيان الكريم باسم الإشارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ لإفادة التكثير، من خلال الانتقال من الفرد في قوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ ﴾ إلى اسم الإشارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ لإعطاء دلالة الكثرة، مما يُرَغِّب المؤمنين في أن يكونوا منهم، ويتحفزون لذلك بشدة وعزيمة. وكذلك لإفادة التفخيم والتبجيل والعناية من الله تعالى بهم، مدحاً وثناء، وقولاً وفعلاً.

ثم من العناية أن خصهم سبحانه وتعالى بتخصيص القبول لهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ ﴾ أولئكم هم المخصوصون بتقبل ربهم منهم ﴿ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾ الأحسن من أعمالهم. ولَمَّا أن الإنسان مهما بلغ من الطاعة، فإنه يبدر منه التقصير والهفوات التي هي من الطبائع البشرية، فيقول عنها سبحانه وتعالى ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ فلا نعاقبهم عليها، بل نصفح عنها لقاء اجتهادهم في إحسانهم العمل والوفاء بالمطلوب، وهذا من كرم الله تعالى. وفيه تطمين للمجتهدين في طاعة ربهم، مما يحدث منهم من التقصير، واللمم من الإثم.

ثم يؤكد تبارك وتعالى دخولهم الجنة ﴿ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ ﴾ أي: فهم مصاحبون لأهل الجنة، ثم يزداد التأكيد من الله تعالى لهم بذلك، فيقول عزَّ وجل ﴿ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ فإن هذا الوعد هو وعد صادق من ربكم لكم بما وعدكم به، فلن يخلف الله تعالى ما وعدكم به من دخول الجنة جزاء لأعمالكم الحسنة، مع التجاوز عن سيئاتكم فلا نعاقبكم عليها. وهذا فضل ونعمة من الله تعالى، ونسأله عَزَّ وجل أن يتقبلنا ويتجاوز عن سيئاتنا والمسلمين أجمعين يا رب العالمين.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى الشخصية المضادة لهذا الولد الطائع لربه، والبار بوالديه، والسائل لربه أن يبارك فيه، وأن يصلح في ذريته. فيقول عزَّ وجل ﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ فهذا النوع من الولد المتضجر، الذي كفر بربه، والذي أساء لوالديه المؤمنين، فإنه مختلف عن الولد المؤمن الراجي لرحمة ربه وهدايته وتوفيقه. حيث أفاد السياق أن والديه مجتهدان في نصحه، فقد نصحاه بالإيمان بالبعث والحساب والجزاء.

فبدأ البيان بما كان من الولد الكافر لوالديه، وذلك لإظهار عقوقه، وإبراز اختلافه المضاد للولد المؤمن، فقال تعالى ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ ﴾ واذكروا شأن الولد الذي قال لأمه وأبيه ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ كلمة تضجر، من أقسى أنواع ألفاظ التضجر، والقسوة في الكلام والتعامل.

وعلة هذا التضجر أنهما ينصحانه بوجوب الإيمان بالبعث والنشور والحساب والجزاء، وهو يرد عليهما بالاستنكار لذلك ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ ﴾ أتُوعِدُوني بالخروج من قبري بعد موتي. سؤال استنكار، وعناد، وإثبات منه لهم بأنه لا يؤمن بالبعث. كما دل ذلك على إيمان والديه، وحرصهما على مصلحته. بينما هو غير حريص على مصلحة نفسه، ولا اعتبار عنده لوالديه. مما يبين أن من كَفَرَ ولم يؤمن، فهو في قسوة مع والديه في التعامل، لأنه لا ينظر إلا لهواه وملذاته العاجلة.

ثم يعلل هذا الولد استنكاره للبعث من خلال قياس شأنه على من سبق من الأموات، من الأجيال السابقة ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي ﴾ أتعداني بالخروج من قبري بعد موتي ﴿ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي ﴾ والحال أن من سبق من الأموات من أهل القرون الماضية، لم يَعُدْ منهم أحد إلى الدنيا. فهو قياس مع الفارق، وقياس عقيم، لا يصح بأي وجه من الأوجه. فكل من مات من القرون الماضية، لن يعودوا إلى الدنيا أصلاً، وأن مبعثهم هو يوم القيامة، حيث ينتقل منه العباد إلى الآخرة، فيحاسبون، ويجزون على ما كان منهم.

ومع أنه في أشد قسوته مع والديه إلا أنهما في أشد الحرص على مصلحته ونجاته من عذاب الله تعالى، فيسارعان بالنصيحة له، والعتاب له من فكره الضال، فيقولان له نصحاً وشفقة بما يبصره بالحق. وقد انطلقا أولا من الاستغاثة بالله تعالى ﴿ وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ ﴾ فهما يتوجهان إلى الله تعالى بالاستعانة أولاً، فهما يستغيثان ربهما بأن يصلح لهما هذا الولد الذي جمع بين الكفر والعقوق. فجمعا بين الاستغاثة والاستعانة بالله عَزَّ وجل وبين النصح له بقولهما ﴿ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ ﴾ أي: أن الهلاك سيصيبك، ويحل بك إن لم تؤمن. فليس المقصود هو الدعاء عليه، بل بيان ما سيلحقه إن لم يؤمن. فالويل والثبور له إن لم يؤمن ﴿ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ ﴾ ويحك آمن بالله تعالى، وبما جاء عن ربك ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ فإن ما وعد الله تعالى به من البعث والحساب والجزاء حق كائن لا محالة، فآمن به، واستقم على ما أمر خير لك. يقولون ذلك شفقة عليه، ورحمة به، وهو على نقيض تعاملهما معه، في معصية وعقوق وكفر. بعكس المؤمن، الذي كان يعبر ويمثل شخصية من كان يدعو لهما، في طاعة لربه، ورجاء رحمته.

فيقول هذا الولد الكافر في رده على مطلب والديه بأن يؤمن ﴿ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ أي: أن هذا الذي تقولونه من البعث بعد الموت، فإنه مأخوذ من كتب المتقدمين، على سبيل التهكم والتندر، أي أن الذي تقولون هو من كتب المتقدمين. وبالتالي ينكر النبوة والرسالة. فهو في ظنه وحكمه الباطل: لا يعدوا أن يكون هذا القول بالبعث إلا مما سطره الأولون في كتبهم من الأخبار والترهات التي لا صحة لها. لأن الأساطير تعني: الخرافات والروايات التي هدفها التسلية والتلهي ومضيعة الوقت، وليس لها حقيقة كائنة. وهذا قياس باطل، ولا حجة ولا برهان فيه. فإن الله تعالى يجمع جميع الخلائق في بعث واحد يوم القيامة، وقد دل على ذلك ما ساقه الله تعالى من الحجج والبراهين، ومنها عظمة خلق السماوات والأرض وما بينهما، وإحياء الأرض بعد موتها، مع تجدد موتها وإحيائها.

مما يبين حرص الوالدين على سلامة أولادهم، وأنهم يعانون من شفقتهم على أولادهم إن حادوا عن الطريق. كما يتبين الفرق بين تعامل الولد المؤمن والولد الكافر مع والديه. وبما يوضح أثر الإيمان على السلوك، وعلى مكارم الأخلاق وعلى البر والطاعة، وحُسن العمل، وحُسن الالتجاء والرجاء إلى الله تعالى، ومحبة الله تعالى للمؤمنين، ومكافأته لهم بأحسن ما يكون، من دخول الجنة، والتجاوز عن السيئات. فهما نموذجان يقدمان الفرق بين المؤمن وبين الكافر في كل شيء، ولا سيما منهج التفكير، ومنهج التعامل. ونسأل الله تعالى التوفيق والعفو والعافية في الدنيا والآخرة.

ثم يبين تبارك وتعالى جزاء من كان هذا مسلكه، ليفيد التنبيه والتحذير والترهيب، فقال عَزَّ وجل ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ وقد بدأ البيان الكريم باسم الإشارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ لإفادة الجمع لكل من كان هذا مسلكه. منتقلاً من حالة الفرد في قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ ﴾ إلى حالة الجماعة والكثرة، من خلال اسم الإشارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ لإعطاء دلالة أنهم جميعاً قد حق عليهم القول من العذاب لكفره، فقال تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ فأولئك القائلون هذا القول من نكرانهم البعث، هم ﴿ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ ﴾ أي: وجب عليهم قولنا بعذابهم ﴿ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ أي: في جملة الأمم التي سبقت من قبلهم، من الجن والإنس، التي وعدناهم بالعذاب.

ثم اظهر تبارك فداحة خسارتهم، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ إن هؤلاء ممن قد خسروا الحق، وحَصَّلُوا الباطل، وخسروا الجنة، وحَصَّلُوا النار والعذاب المهين. فتحققت لهم الخسارة الكاملة من كل وجه وباب. فهم الخاسرون حقاً.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما ينتظر كلاً من الفريقين: فريق المؤمنين وفريق الكافرين، فقال تعالى ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ولكل فريق من الفريقين: المؤمن والكافر، وسواء من الجن أو الإنس، فإن لهم درجات من المراتب عند ربهم ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ ﴾ مراتب مقترنة بحسب ما كان منهم من العمل ﴿ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ أهل الطاعة مراتب في طاعتهم، فلهم مراتب تتناسب مع كل مرتبة من العمل الصالح. وكذلك أهل العذاب مراتب، وكل له العذاب الذي يناسب مرتبة ودرجة كفره. وأما السبب في تلك المراتب فهو قوله تعالى ﴿ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ ليستوفوا كامل جزاء أعمالهم ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فلا يزيد الله سبحانه وتعالى على مسيء ما لا يستحق، ولا يُنقِص من محسن شيئاً مما أحسن فيه. فيستوفي كل أحد كامل ما يستحق من غير ظلم له. ليظهر عدل الله تعالى مع جميع العباد. وكل ذلك من عدله المتضمن رحمته. وبما يفيد البشارة للمطيع، والإنذار لكل عاص بحسب معصيته. وهذا من فضل الله تعالى ورحمته بأن كشف وبين للناس ما هم مقبلين عليه بكل وضوح، وبالتالي لا يلومن الإنسان إلا نفسه.

ثم يعظ الله تعالى عباده، بتوجه النبي صلى الله عليه وسلم بما يذكر عباده به من عذاب الكافرين الذين ضيعوا وأبطلوا ما كانوا فيه في الدنيا بكفرهم وعنادهم، فقال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ واذكر لهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم يوم ينظر هؤلاء الكفرة إلى النار، وهم يُعرَضُون عليها ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ ويقال لهم عتاباً وتحسيراً وتوبيخاً وتقريعاً ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا ﴾ أذهبتم ما كنتم تستطيبونه في حياتكم الدنيا ﴿ وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ وتلذذتم بها. فلم يبق منها شيء، فكانت منكم كالسراب، حتى أوصلتكم للأمر الدائم المستمر الذي لا ينقطع ﴿ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ أي: العذاب الذي فيه الإذلال والخزي والعار لكم ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ بسبب استكباركم في الأرض، وتطاولكم على الحق من غير وجه حق لكم فيه. أي:

كان بالتعدي المخالف للصواب. فرددتم رسالة المرسلين، وكذبتم بالكتب، وجحدتم بالآيات والبراهين، وصددتم عن النذر. مغترين باستكباركم وتطاولكم على الحق.

والسبب الثاني هو ﴿ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴾ وبما كان منكم من الخروج عن طاعة ربكم تبارك وتعالى. وفي وصفهم بالفسوق الذي هو الخروج عن الشيء، دليل على أنهم أيقنوا الحق وخرجوا عنه، فإن من شدة معرفتهم للحق الذي جاء به المرسلون، فإن حالهم: كأنهم خرجوا منه بعد يقينهم بأن أولئك رُسُل الله عليهم الصلاة والسلام، وأن تلك الحجج والبراهين حق من الله تعالى، ولكن الاستكبار، ومحبة شهوات النفس، وتقديمها على الحق قد أودعهم فيما هم فيه من الهلاك. مما يفيد التحذير والانتباه، فانتبهوا أيها الناس من متابعة الاستكبار النفسي، ومن متابعة المستكبرين، وانتبهوا من تغليب الشهوات، وتزيين الشيطان، فإن أمامكم حياة لا تنقطع، إما في الجنة أو في السعير. فاحذروا، فقد بين الله تعالى للجميع طريق الحق بكل وضوح، فلمن شاء أن يستقيم، ولمن شاء أن يكفر.

﴿ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

بعد إيضاح التباين بين الولد المؤمن والولد الكافر، ينتقل البيان الكريم إلى الموعظة بمن سبق من الأمم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ واذكر أيها الرسول صلى الله عليه وسلم للناس قصة هود عليه الصلاة والسلام مع قومه، قوم عاد. وبدأ التوجيه الكريم بفعل الأمر ﴿ وَٱذۡكُرۡ ﴾ الذي يفيد الإخبار بحال قوم عاد لقومك المجادلين، ولغيرهم من الناس. فاذكر لهؤلاء المجادلين قصة هود عليه السلام مع قومه الذين كذبوه. وهو: هود بن عبد الله بن رباح. وقد عَرَّفَهُ وذَكَرَهُ سبحانه وتعالى بصلة قرابته من قومه، قوم عاد ﴿ أَخَا عَادٍ ﴾. أي: أنه منهم بمنزلة الأخ لهم، بما يفيد قوة صلته بهم، ومحبتهم له. وفي ذلك إشارة إلى أن منزلة محمد صلى الله عليه وسلم من قومه كصلة هود عليه السلام من قومه، بأنه كان كالأخ لأفراد قومه.

فبالرغم من تلك الأخوة، التي تؤكد قوة معرفتهم به، إلا أنه حين أنذرهم، اختلفوا عليه، كما اختلفوا عليك. لبيان قوة التشابه.

فاذكر أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ما وعظ به هود قومه عليه السلام ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ أي: حين أنذر قومه ﴿بِٱلْأَحْقَافِ﴾ وهو اسم ديار قوم هود عليه السلام. وهو الكثيب المعوج من الرمال، وما استطال منها، وأصبح حجمه وصورته كهيئة الجبل. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: والأحقاف جمعُ حِقْفٍ، وهو من الرمل، ما استطال، ولم يبلغ أن يكون جبلاً. وقال ابن زيد رحمه الله تعالى: الأحقاف: الرمل الذي يكون كهيئة الجبل، تدعوه العرب: الْحِقْف. وأجاز ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى أن يكون ذلك جبلاً بالشام، وجائز أن يكون بين عُمَان وحضرموت(١) ولعل الأرجح أنها جهة عُمَان، حيث تكثر الرمال. وفي عرض هذا الحدث من قصة قوم عاد ما يفيد أن العرب كانوا يعرفون ذلك من خلال تناقل أخبارهم، وأن هذا من باب التذكير لهم، وتنشيط عقولهم بما كان من أولئك. ليفيد التحذير من أن يكون شأنكم مع رسوله صلى الله عليه وسلم الذي تعرفونه كشأنهم مع رسولهم الذي يعرفونه حق المعرفة، حتى بلغت منزلته بمنزلة الأخ لهم.

ثم يُذَكِّرهُم بما كان من شأن الرسل من قبله، وقد أصبح الجميع لا أثر لحياتهم في الدنيا ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ فقد مضت النذر والمنذرين من الرسل من قبله، أي: من قبل هود عليه السلام، وكذلك ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ وكذلك مضت الرسل من بعده، فلم يبق أحد منهم. بما يفيد وكذلك نحن سنمضي ولن يبق أحد منا، وسنلقى أعمالنا أمامنا. وبما يفيد لن ينتفع الإنسان بتعاليه واستكباره اليوم، وهو مغادر عن الحياة الدنيا ومنتهي منها. فالعاقل من يفهم العبر ممن سبق.

وكان محور إنذاره لهم هو ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ النهي عن الشرك، والأمر بصرف العبادة لله تعالى وحده لا شريك له. فلم يكن إنذارهم إلا أن يُوحدوا الله تعالى، ولا يشركوا به شيئاً. فليس في الأمر صعوبة، بل هو تصحيح للمعتقد، حتى يكون العمل وفق ما شرع سبحانه وتعالى. ثم بين لهم خوفه من عدم استجابتهم له ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فإني أخاف أن يصيبكم الله تعالى بعذاب أليم إن لم تستجيبوا إلى ما أرسلني الله تعالى به إليكم.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/١٥٠-١٥٣)

ثم ذكر سبحانه وتعالى جواب قوم عاد على رسولهم هود عليه الصلاة والسلام، فقال تعالى عنهم ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فرد قومه عليه: بأن مرادك وقصدك من دعوتنا لما تقول هو ﴿ لِتَأۡفِكَنَا ﴾ لتصرفنا ﴿ عَنۡ ءَالِهَتِنَا ﴾ عن أصنامنا التي نعبدها.

فحتى يثبتوا على شركهم وكفرهم تأولوا مراده بما يخدم مرادهم. مما يبين أن المعاند يجتهد في تأويل الحق إلى ما يناسب هواه. فإذا كان هذا مع دين الله تعالى، ومع المرسلين فكيف مع من هم دون ذلك. ثم أكدوا إصرارهم ﴿ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ فإن كنت صادقاً فيما تتوعدنا به من العذاب، فآتنا به. مما يفيد أنهم لم يَعُد لديهم القدرة على دفع حجج نبي الله هود عليه الصلاة والسلام، فضاقت مسالك الرد عليهم، لأن هود عليه السلام أغلق أمامهم بالبراهين والحجج كل ما يمكن أن يصدر منهم، كما تبين من عرض حججه في سورة هود التي حملت اسمه عليه الصلاة والسلام. كما أن في طلبهم أن يأتيهم بالعذاب، ما يبين استكبارهم، وقوة دفعهم للحق، وأن الذي يمنعهم من الإيمان هو الكبر في النفوس، مما يبين مخاطر الكبر في صد الحق، إلى درجة قبول العذاب وطلبه.

فأجابهم هود عليه السلام بأن الأمر عائد إلى الله سبحانه وتعالى وليس إليه ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ فقال رسول الله هود عليه الصلاة والسلام ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فإن العلم بالعذاب وموعده عند الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يعلم بموعد ما يأتيكم به من العذاب. ومن دقائق البيان أن حصر وقصر العلم بموعد العذاب على الله تعالى فقط بأداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ التي يبين من خلالها أنه لا علم له البتة، ولا لأحد غير الله سبحانه وتعالى يعلم ما يعدكم به. وبما يفيد أنكم تطلبون مني ما ليس لي به علم.

ثم أوضح لهم حدود مسؤوليته ﴿ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ ﴾ فمهمتي فقط تنحصر في أن أبلغكم بما أمرني الله تعالى أن أبلغكم به. ثم من حرصه على اتباعهم الحق أن نوه لهم بمكمن الخطأ عندهم بأداة الاستدراك ﴿ وَلَٰكِنِّيٓ ﴾ لتعطى معنى الخبر والعلم الذي أعرفه، وأنني مُتيقن منه هو أني ﴿ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾ أي: أرى أنكم تجهلون ما اقترحتموه عليَّ، بأن آتيكم بما حذرتكم منه، وهو عذاب الله عَزَّ وجل. فوصفهم بالوصف الذي يستحقونه. وهو تجهيلهم بما يترتب على كفرهم وعنادهم، وتطاولهم بالتحدي، إلى الحد الذي طلبوا من رسولهم أن يأتيهم بعذاب الله تعالى الذي حذرهم منه.

ثم طوى البيان الكريم الزمن الذي ما بين ما طلبوا من العذاب، وبين وقوعه، بما يفيد شد الانتباه إلى توالي الأيام وسرعتها. فجاءهم ما طلبوه من العذاب، فقال الله تعالى عنهم ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فلما شاهدوا علامات العذاب، وهو السحاب العارض في السماء، وعلى وجه أنه لم يخطر ببالهم غير أنه سحاب سيمطر عليهم ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا﴾ أي: لما رأوا السحاب عابر وطارئ غير متوقع حسب رؤيتهم وتفكيرهم وتوقعهم، وتحليلهم لما رأوا. فشاهدوه ﴿مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ﴾ متوجه وسائر إلى أماكنهم من الأودية. ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾ فهذا السحاب العارض في السماء، ومتوجه إلى أوديتنا بالمطر فإنه سوف يمطرنا بالماء.

قال الزمخشري رحمه الله تعالى: والعارض: السحاب الذي يعرض في أفق السماء[١] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: متوجهاً نحو أوديتهم. قال المفسرون: كانت عاد، قد حُبس عنها، فساق الله إليهم سحابة سوداء، فخرجت عليهم من واد لهم[٢] فحكموا بما اعتقدوا ﴿قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾ فهذا السحاب العارض في السماء، ومتوجه إلى أوديتنا بالمطر فإنه سوف يمطرنا بالماء.

فلما قالوا ذلك أجابهم نبي الله هود عليه الصلاة والسلام بما قاله الله تعالى عنه ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ ليس الأمر والشأن كما قلتم وحكمتم. فبدأ بالنفي لكلامهم بحرف ﴿بَلۡ﴾ الذي أفاد نفي تفسيرهم لِمَا رأوا من السحاب، ليخبر بحقيقته ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦ﴾ فهذا هو الذي طلبتم مني أن آتيكم به، وهو قولهم السابق ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ مما يدل على أن الله تعالى قد أخبر هود بذلك الأمر حتى يكون هو ومن معه في مأمن منه. فإنها ﴿رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فقد كان السحاب عبارة عن ريح محملة بالعذاب الأليم. فنشأت الريح من تلك السحابة. ليتبين عظيم قدرة الله تعالى. فحاق بهم العذاب الذي استحقوه بكبريائهم وازدرائهم للحق، وتطاولهم على نبي الله هود عليه السلام. مما يفيد التحذير لكل من عاند الرسول صلى الله عليه وسلم، فخذوا حذركم، واتعظوا بغيركم، وآمنوا، ولا يكن حالكم كحال الأمم الكافرة من قبل.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٣٠٣/٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢٣/٥)

ثم وصف لهم ما سيكون من هذه السحابة من العذاب، التي اعتبرتموها عارضاً ممطركم ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ فإن هذه الريح بقدرة الله تعالى ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ تهلك وتجتث وتدمر كل شيء أتت عليه، وذلك ﴿ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ وليس بأمري، ولا بأمر أحد من خلقه، بل طائعة لأمر ربها سبحانه وتعالى. ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ أي: هلك واختفى كل شيء يمكن أن يراه الرائي إلا بيوتهم التي كانوا يسكنونها. بما يفيد أنه لم يبق منهم ولا من مزارعهم ولا أنعامهم وبهائمهم شيء. فقد أهلكت تلك الرياح كل شيء، وبقيت مساكنهم عبرة لغيرهم. فاعتبروا أيها الناس بما حدث لمن كان قبلكم من المكذبين بدين الله تعالى، وبآياته وحججه.

ثم يخبر الله تعالى بامتداد عقوبته لكل المجرمين، فقال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ فبمثل ذلك العذاب نعاقب المجرمين، الذين كفروا بآيات الله تعالى وحججه وبراهينه. مما يفيد التحذير والإنذار لكل إنسان، يسمع القرآن الكريم ويجادل ويعاند، ويكذب به، وبدين الله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم. وهذا من رحمة الله تعالى للعباد، بأن يعظ وينذر الناس من عاقبة الكفر ونتائجه المهلكة لمن عاند وكفر. فالحمد لله رب العالمين على نعمة الإسلام.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

ينتقل البيان الكريم إلى تحذير وتخويف المشركين مما هم عليه من العناد والاستكبار، فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ولقد سخرنا لمن كان قبلكم سُبُل التمكين في الدنيا بما لم نمكنكم منه أيها المشركون في مكة. ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ قال ابن جرير رحمه الله تعالى: يقول تعالى سبحانه وتعالى لكفار

قريش: ولقد مكنَّا أيها القوم عاداً، الذين أهلكناهم بكفرهم، فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا. وأعطيناهم منها الذي لم نعطكم منها، من كثرة الأموال، وبسطة الجسم، وشدة الأبدان[1] ومع ذلك تم إهلاكهم وتدميرهم بالعذاب الشديد. ولا تعتقدوا أن ما أنتم فيه من التمكين سيدفع عنكم عذابنا. فإن قوم عاد كانوا أكثر منكم قوة، ومع ذلك أهلكناهم، واستأصلناهم، فلم تبق بعدهم إلا مساكنهم. فاحذروا من عذاب ربكم بمتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يذكر تبارك وتعالى المزيد مما أنعم به على قوم عاد، فقال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ فقد مكناهم من استخدام نعمة السمع والأبصار والعقول، فلم يكن عندهم قصور في ذلك حتى يُقال إنهم تركوا الحق لخلل في عقولهم، وقصور في أسماعهم وأبصارهم، فلم يتمكنوا من العلم والمعرفة بما جاءهم من الحق. ومع تكامل تلك النعم عليهم من ربهم تبارك وتعالى، إلا أنهم عندما عصوا رسول ربهم، فإنه تلك القوة لم تمنع عنهم عذاب ربهم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ فما انتفعوا بقوة نعمة السمع والأبصار والأفئدة ومما جاءهم من العلم والآيات والحجج، في قبول الحق، فما استخدموها فيما ينفعهم، وكذلك ما أغنتهم تلك القوة من العقل والسمع والبصر من أن يفلتوا من عذاب الله تعالى، بما رأوا وسمعوا، وفطنوا له. مما يدل على أن العناد والاستكبار، وتعاظم النفس يُعَطِّل وسائل وقُوى التعلم، وينحرف بالعقل عن قبول الحق، وعن اتخاذ مسار الصواب، وعن التعامل بالحكمة في الفصل بين الحق الباطل. بل يجعلهم في مسار العناد المنافي للتعقل. مما يفيد الحذر من الاستكبار، ومن مطاوعة النفس على حساب الحق والنجاة، فإن مكمن الدمار للإنسان هو الاستعلاء بالتكبر، وأن نجاة الإنسان في توظيف نعمة السمع والبصر والفؤاد في اتباع الحق، ومعارضة الهوى، والنفس الأمارة بالسوء، ومتابعة الشيطان.

كما يبين ذلك مدى افتقار الإنسان لربه في أن يتمكن من نفسه، وأن يجنبه شر نفسه، كما ورد في الحديث أنه لما أسلم حُصين رضي الله عنه، قال: يا رسول الله عَلِّمني الكلمتين التي وعدتني، فقال صلى الله عليه وسلم (قل اللهم ألهمني رُشدي، وقني شر نفسي)[2] مما يبين شدة افتقار الإنسان لربه في كل شيء، حتى في كفايته من شر نفسه. فإن النفس تحمل الشر بمحبة التطاول على الغير.

ثم ذكر سبحانه وتعالى علة وسبب ذلك، بأنهم ما انتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم، لجحودهم ونكرانهم لآيات الله تعالى من الحجج والبراهين. فقال عَزَّ وجل ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/١٦٠)

(2) النسائي، السنن الكبرى، مطولاً (١٠٨٣٠) وأحمد (١٩٩٩٢) وابن القيم، الوابل الصيب (١٩٩) واللفظ له.

﴿وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ فإنهم لم انتفعوا بأسماعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم في اتباع الحق بعد معرفته. فقد كانوا ينكرون حجج الله تعالى وبراهينه التي هي الآيات التي جاءهم بها رسول الله هود عليه الصلاة والسلام. وفي تسمية فعلهم بالجحود، دليل على إثبات حصول اليقين لهم بحقيقة رسولهم هود عليه السلام، وبالآيات أنها صدق، وأن ما جاءهم به هو الحق الذي لا مراء فيه، ولكنهم امتنعوا استكباراً. لأن دلالة الجحود تفيد الامتناع عن الحق بعد معرفته، والتيقن منه أنه حق.

ثم يصف الله تعالى قوة عذابه الذي ألحقه بهم، بقوله عَزَّ وجل ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ أي: طوقهم، وأحاط بهم الهلاك، فقد غشيهم العذاب الذي كانوا يتهكمون ويستهزئون به، ويطلبونه ويستفهمون عن عدم وقوعه استكباراً واستهزاء. ومن بديع ودقة البيان أن وصف الله تعالى علة وسبب وقوع العذاب بأنه التمادي في التكذيب إلى درجة الاستهزاء ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فالسبب الذي أوقع العذاب بهم هو استهزاءهم بالحق وبما وعدهم به من العذاب، عندما قالوا ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ ليؤكد أن قولهم هذا هو من باب الاستهزاء والتهكم. وهذا إعجاز بياني عظيم. إذ يتبين من ذلك أن من أصر على الكفر عناداً، فإنه يجادل عنه عناداً، ويَصف ويُوسم الحق بالباطل، ويَصف الباطل بالحق.

وورد السياق بما يعطي صورة التفاف العذاب عليهم، بأنه التف بهم، وأحاط بهم من كل جانب، وكذلك جعل سبحانه وتعالى الإحاطة من قِبَل ما كانوا به يستهزئون من وقوع العذاب. فجعل سبحانه وتعالى الذي كانوا يستهزئون به هو الذي أحاط بهم ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ كناية عن ما نتج عنه من حلول العذاب، بسبب استهزائهم، فكان أسلوباً بديعا في تصوير العلاقة بين العذاب وأسبابه، فإن أسباب العذاب التي فعلوها وقاموا بها هي التي أوقعتهم فيه.

وفي هذا تنبيه وتحذير وترهيب للكافرين في عهد نبوته صلى الله عليه وسلم، وفي كل زمان ومكان، بأن الله تعالى قوي عزيز، ومحيط بخلقه تمام الإحاطة وأكملها، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. مما يفيد الموعظة مما حل بمن سبق من الكفرة الجاحدين، فاحذروا أيها الْمُخَاطَبُون من خطاب الله تعالى لكل أحد من الناس إلى أن تقوم الساعة.

ثم يزداد الوعظ لأهل مكة ممن عاند بالكفر، بأن عليهم التأمل والتفكر فيمن كان حولهم من الأمصار التي كفر أهلها بالمرسلين، فتغشَّاهم عذاب ربهم، فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ

﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لقد أهلكنا فيما سبق ممن كان حولكم من القرى، التي هي قرى ثمود، وقرى عاد، وقرى، لوط. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يعني أهل مكة، قد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل، مما حولها، كعاد، وكانوا بالأحقاف، بحضرموت، عند اليمن. وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام. وكذلك سبأ، وهم أهل اليمن، ومدين، وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة. وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضا[١] حيث كانت أخبارهم متواترة عندهم.

ومن دقائق البيان العظيم إيقاع العذاب على القرى. ليفيد إظهار صورة التهويل والتعظيم لما حاق بهم من العذاب ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ أهلكنا القرى التي حولكم بالعذاب. والتي أعطت معنى ودلالة إهلاك القرى بأكملها، فلم يبق منهم ومنها إلا مساكنهم. لتزداد الموعظة قوة وأثراً في النفوس. وفي ذلك بيان لحقيقة العذاب بكل دقة، كما حصل لهم. وكذلك لإظهار التهويل بالمبالغة في أثر العذاب وقوته.

ثم ينتقل سبحانه وتعالى بالْمُخَاطَبين إلى المقصد من قوله عَزَّ وجل ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ ﴾ فإن المقصد من ذلك هو استبانة الحجج من كثرة تنوعها ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فلقد نوعنا الحجج والبينات التي هي الآيات بأساليب متنوعة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ بهدف وغاية أن يرجعوا عن غيهم واستكبارهم إلى الحق الذي قد ظهر لهم. وحتى لا يكون حالهم من العذاب كحال من قبلهم ممن كذب من الأمم التي حولهم. مما يفيد أن الغاية من بيان قصص الأمم السابقة في القرآن هو لتحصيل الاتعاظ بها.

ثم يُجلي القرآن الكريم حقيقة ما يعبدون من دونه سبحانه وتعالى، وذلك بكشف خذلان تلك المعبودات لمن عبدها، إذ لم تنصر مَن عبدها، فتمنع عذاب الله عَزَّ وجل عنهم ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ ۖ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ يوضح تبارك وتعالى بطلان وباطل ما كانت تعبد تلك الأمم الهالكة، بأنها لم تنصرهم وتمنع عنهم عذاب الله عَزَّ وجل ﴿ فَلَوْلَا ﴾ فهلا ﴿نَصَرَهُمُ ﴾ بمنع ما وقع عليهم من عذاب ربهم سبحانه وتعالى. فهلا نصرتهم تلك المعبودات من الأوثان ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ ﴾ الذين اتخذوها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ﴾ أي: اتخذوها تجاوزاً لربهم سبحانه وتعالى، من أجل أن يتقربوا بها إلى الله تعالى، افتراء من عند أنفسهم. والقربان جمعه قرابين، وهو كل ما يتقرب به إلى الله تعالى، وجعلوها ﴿قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ ﴾ أي: يعبدونها كآلهة من دون

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/١٧٤-١٧٥)

الله عَزَّ وجل، تقرباً بها فيما يزعمون أنها إلى الله تبارك وتعالى، افتراء عليه من عند أنفسهم. ووصفها سبحانه وتعالى أنهم يعبدونها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني مع الله، وتأتي بمعنى: غير الله. فيدعون إلهاً غير الله عَزَّ وجل. فلم يعبدوا الله إذ عبدوا غيره، وكذلك أشركوا معه غيره. لأن عبادة الله تعالى لا تكون إلا له وحده لا شريك له.

ومن دقائق البيان أن ورد مطلع الآية الكريمة بحرف ﴿فَلَوْلَا﴾ الذي أفاد: هلا، فأين تلك الآلهة التي يزعمون، ليعطي دلالة التحضيض والحث والتنبيه لإبطال ما زعموا، بتأكيد وبيان الحقيقة ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ أين هم عن نصرتهم؟ للاستدلال على كذبهم وإفكهم. وعجز تلك المعبودات، وكل معبود هو من دون الله سبحانه وتعالى. ليفيد التأنيب على ما كان منهم، وعلى ممن ماثلهم. وفي ذلك دفع للمشركين إلى ما يجب عليهم من توحيد ربهم تبارك وتعالى، وإبطال ما هم عليه من الشرك.

ثم يكشف الله تعالى لهم حقيقة بطلان تلك الأوثان التي عبدوها من دونه سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ بل افتقدوا صنيعها، فما نصرتهم، إذ لم تصنع لهم شيئاً يمنع عنهم عذاب ربهم. مما يدل ويُثبت بطلانها. وبما يفيد أهمية اغتنام الأحداث في كشف الحقائق، وتعرية الباطل بالأدلة والشواهد المحسوسة. وأن منهج الله تعالى في الاستدلال هو المنهج الحقيقي والعلمي، الذي يخاطب العقول بالصواب والحقائق المبطلة للضلال والجهل.

ومن دقائق البيان أن نسب انعدام النفع من النصر لتلك الأوثان ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ أي: ضلت الطريق عنهم فلم تتمكن من نصرتهم. فأنزلها لهم منزلة العاقل، تهكماً بهم، وبعقولهم، وبما اتخذوا من المعبودات، التي خذلتهم، فكأنما تاهت وضلت الطريق لنصرتهم، بما يبين أنهم انتصروا بمعدوم القدرة. وقد سبقها البيان بحرف ﴿بَلْ﴾ لتعطي سرعة الانتقال من ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ إلى ﴿ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ فأعطت سرعة الإضراب والاستدراك على امتناعها عن نصرتهم. فذلك دقة في البيان، وقوة في الاستدلال، وبراعة في كشف جهل الجاهلين بشركهم.

ثم انتقل البيان الكريم إلى سبب اختفاء نُصرة تلك الأوثان ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ وذلك بسبب كذبهم، من أن لها قوة، ولها أثر. فإن الذي اتخذوه هو الإفك والافتراء، فكان تحصيل العذاب لهم هو بسبب ذلك الكذب المُختَرَع، ثم أكده سبحانه وتعالى ببيان نوع هذا الكذب وما ألبسوه من الافتراء ﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ وهو الاختراع والابتكار من غير أصل ولا حقيقة، ولا دليل، فإفكهم الذي هو كذبهم ينطلق

من الافتراء، وهو اختلاق واختراع الكذب من غير دليل، ولا سند يعتمدون عليه. فأوقعهم ذلك في تكذيب المرسلين ومعاداتهم، والذي بدوره أوقعهم في هذا العذاب الشديد الأليم.

وهذا يبين أن مراد الله تعالى هو تصحيح أفهام العباد، ليعبدوه على حق وبصيرة، وفق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. وأن منهج الله تعالى في الاستدلال هو المنهج الحقيقي والعلمي، الذي يخاطب العقول بالصواب والحقائق المبطلة للباطل والضلال والجهل.

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

ينتقل البيان من الله سبحانه وتعالى إلى تعزيز رسالة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وتأييده بما سخر له جَلَّ جلاله من الجن الذين استمعوا للرسول صلى الله عليه وسلم وهو يتلوا القرآن. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ واذكر أيها الرسول حين وجهنا وبعثنا لك عدداً من الجن ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ فالذي صرفهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم هو الله تعالى بقدرته، من أجل ﴿ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ فالهدف والغاية هو أن يستمعوا لكلام الله تعالى ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ فلما حضروا قراءة النبي صلى الله عليه وسلم خاطب بعضهم بعضاً ﴿ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ استمعوا، مما يدل على العناية والاهتمام. وبما يفيد أن أول طريق معرفة الحق هو الاستماع بوعي وانتباه من أجل إدراك الحق، وليس بنية التشويش والمحاربة. وهذا دليل على أنه عليه الصلاة والسلام مُرسل كذلك إلى الجن، إلى الثقلين الإنس والجن. ولذلك بعث الله تعالى نفراً من الجن يستمعون القرآن، فأنذروا قومهم. وليدل الإنذار على التخويف، ولزوم المتابعة والطاعة.

وقد أنصتوا واستمعوا للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلَمَّا قُضِىَ ﴾ فلما فرغ الرسول صلى الله عليه وسلم من تلاوته، فانتهى مما كان يتلوه، وردت الاستجابة منهم سريعة جداً، حيث قال تبارك وتعالى عنهم

﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ انصرفوا مباشرة إلى قومهم من الجن ﴿ مُّنذِرِينَ ﴾ محذرين قومهم من مخالفة الرسول والقرآن العظيم. مما يفيد أن النفر من الجن قد آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن الكريم، واستجابوا لما فيه من الأمر والنهي. وأفاد إنذارهم لقومهم دلالة ومعنى: فإن لم تؤمنوا أيها المعاندون من المشركين فقد آمنت الجن برسوله صلى الله عليه وسلم، واستمعت للقرآن فصدقت وآمنت به. فأين عقولكم؟ فهل الجن خير منكم والرسول من جنسكم؟ وقد آمن به مَن ليس من جنسكم، ليحمل التوبيخ، مع الحث على التعقل، فلا تكن الجن خير منكم في قبول الحق الذي أنتم معنيون به. وهذا من عظيم رحمة الله تعالى بعباده، سواء الجن أو الإنس، ليرشدهم إلى نجاتهم.

ثم يخبر الله تعالى بمضمون ما قالته الجن لقومهم. فقال تعالى ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ فخاطبوا قومهم قائلين لهم ﴿ يَٰقَوْمَنَآ ﴾ فخاطبوهم بياء النداء الذي سبق لفظة القوم، لشد الانتباه، وإرعاء السمع، فالأمر غاية في الأهمية. ثم خاطبوهم بقوة الانتماء ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ ﴾ بما يدل على الحرص على مصلحتهم، باعتبار العلاقة التي بينهم ﴿ يَٰقَوْمَنَآ ﴾ التي هي علاقة الانتماء إليهم. ثم انتقلوا بعد شد الانتباه إلى بيان الخبر الذي يحملونه ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ إنا سمعنا كتاباً جديداً، ذاكرين له بأنه ﴿ أُنزِلَ ﴾ ليدل ويفيد أنه من السماء، أي من عند الله تعالى، لينتفي بذلك أنه من كلام البشر. فحصروا وقصروا مجيء القرآن الكريم بالنزول، ثم أوضحوا العلاقة بينه وبين ما سبق من الكتب ﴿ كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ أي: من بعد كتاب التورة الذي أنزله الله تعالى على موسى عليه الصلاة والسلام.

وهنا لم يذكروا الإنجيل الذي أنزل على عيسى ابن مريم عليهما السلام، الذي هو بعد التورة، لأن الإنجيل مكمل ومتمم للتوراة. قال ابن كثير وهو ما لخصه السعدي رحمهما الله تعالى: لأن كتاب موسى أصل للإنجيل، وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنما الإنجيل متمم ومكمل، ومغير لبعض الأحكام[١] مما يدل على عنايتهم واهتمامهم بالدين، وأنهم كانوا عالمين بشأن الكتب. حيث استمروا في الوصف، بأنه ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ مؤيداً لما قبله من الكتب، فقاموا بتوضيح العلاقة التي بين القرآن الكريم وما سبقه من الكتب ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ مؤيداً لما قبله من الكتب، فلا يعارضها. ومعنى ﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: ما

(١) ابن كثير تفسير القرآن العظيم (١٨٣/٤) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١٩/٥)

تقدم عليه في النزول، على من سبق من المرسلين، كالتوراة على موسى، والإنجيل على عيسى عليهما الصلاة والسلام. مما يبين أن دين الله تعالى واحد، وأنه قائم على توحيده عَزَّ وجل، وعلى أركان الإيمان، والعبادات، وإن اختلف بعضها عن بعض في دقائق من التشريع. مما يفيد هيمنة القرآن على ما سبق من الكتب، فهو الذي يصدق ويصادق على ما قبله من الكتب، فما خالف القرآن فليس منها، بل هو تحريف لها، وما وافق القرآن فهو منها، وهو حق، كما هو القرآن حق.

ثم وصفوا القرآن من حيث ما يتحقق به لمن أخذه، واتبع هداه، فقالوا إنَّ هذا القرآن الذي سمعناه، والمصدق لما بين يديه مما سبق من الكتب التي جاءت عن الله تعالى فإنه ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ فهو كتاب يهدي ويوصل من أخذه إلى الدين الحق الصحيح، المضاد للباطل، وإلى كل خير وصواب، وكذلك يهدي ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ إلى الطريق الذي لا اعوجاج فيه، وهو الطريق إلى مرضاة الله تعالى، وجنات النعيم. وهو الطريق المستقيم الذي ينجو به من سلكه. مما يدل على استقامته في توحيده، وعباداته، وأحكامه، وحلاله وحرامه. فمن أخذ به فقد نجا، ومن تركه فقد هلك بين الطرق الملتوية المتعددة. وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: إلى طريق الله القويم. وقال مقاتل: لم يبعث الله نبياً إلى الجن والإنس قبل محمد صلى الله عليه وسلم[١]

ومن دقائق البيان أن أُفرِد الطريق ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ليدل على أن دين الله تعالى هو طريق واحد، فمن افترق عنه فقد سلك طريقاً آخر، لا استقامة ولا نجاة فيه. فإنه يذهب بصاحبه إلى ما يُوقعه في المساءلة والجزاء بما يستحق. مما يبين أن من أراد الحق والنجاة فعليه بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فقد كان خُلُقُه القرآن عليه الصلاة والسلام.

ثم استمروا في نصح قومهم من الجن، بالترغيب أولاً ثم بالترهيب من عقوبة الله تعالى، لمن لم يستجب، فقال الله تعالى عنهم ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فكرروا خطابهم بصيغة النداء، للمزيد من العناية وشد الانتباه، وحثهم على إرعاء السمع، فالأمر في غاية الأهمية. فخاطبوهم بقوة الانتماء ﴿ يَٰقَوْمَنَآ ﴾ بما يدل على شدة الحرص على مصلحتهم، وجدية الطلب، باعتبار العلاقة التي بينهم، بأنهم ينتمون إليهم، ويتقوون بهم، وتهمهم مصلحة قومهم.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٢٥/٥)

ثم أتْبَعُوا ذلك النداء بالإخبار بما يريدون من قومهم، وهو الاستجابة لما يطلبون منهم ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ اجيبوا وبادروا بالاستجابة إلى القرآن العظيم وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي يدعوكم إلى طاعة الله سبحانه تعالى فيما أمر. وفي مطالبتهم لقومهم بالاستجابة إلى القرآن وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم ما يدل على إيمانهم، مع حرصهم الشديد بأن يكون قومهم مثلهم. وفي قولهم ﴿ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ تخصيص بأنه لا يدعو لغيره، بل في هذا الإثبات نفي من أن يكون مشوب بأي شيء يخصه، أو لغير الله تعالى، بما يدل على صفاء الدعوة بأنها خالصة لله سبحانه وتعالى. وكذلك في قولهم ﴿ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ تأكيد بأنه لا مجال للتفكير، بل بالمبادرة والمسارعة. ولذلك أتبعوا هذا الطلب بقولهم ﴿ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ أي: صدقوا وآمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالقرآن الكريم. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى وفي قوله عَزَّ وجل عنهم ﴿ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم. وهذا يدل على أنه أُرسل إلى الجن والإنس[١]

ثم أتبعوا طلبهم ببيان المحفزات والدواعي للإيمان والتصديق به، وأول هذه الدواعي هو تحصيل مغفرة الله تعالى لهم ﴿ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ ﴾ فيمحوا ما كان من ذنوبكم. وفي استخدام حرف ﴿ مِّن ﴾ فيما يتعلق بالمغفرة ﴿ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ ﴾ ما يفيد التحفيز مع الأدب مع الله تعالى. وأما المحفز الثاني فهو: ﴿ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ ويُبعدكم عن العذاب المؤلم في شدته. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وفي هذه الآية دليل على أن حكم الجن، حكم الإنس في الثواب والعقاب، والتعبد بالأوامر والنواهي[٢] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى بعد أن سرد الأقوال والخلاف. قال رحمه الله تعالى: والحق أن مؤمنهم كمؤمني الإنس، يدخلون الجنة، كما هو مذهب جماعة من السلف. واستشهد كذلك رحمه الله تعالى: بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٤٧ ﴾ فقد امتن الله تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء المحسن منهم هو الجنة، وقد قابلت الجن هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس. فقالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد[٣] فهم معاقبون على ما يكون منهم، ومثابون على طاعتهم لله تعالى. وفي سورة الحن

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٣/٧)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٢٦/٥)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٨٤/٤)

قولهم ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

ثم ذكر النفر من الجن لقومهم: أن جزاء من لا يستجب لداعي الله سبحانه وتعالى، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم. فإنه لا يفوت من عذاب الله تعالى بأي وسيلة ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فقرروا لقومهم حقيقة جزاء من لم يؤمن ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ وهنا أعادوا التسمية بأنه داعي الله تعالى، تأكيداً لهم، بأنه لا يدعو لشيء آخر، بل خالصاً لله سبحانه وتعالى، وقد انتفت من دعوته كل شبهة، وظهر إخلاص دعوته صلى الله عليه وسلم لله عَزَّ وجل. ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فإن من لا يستجيب بالإيمان والتصديق والاتباع لداعي الله تعالى، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فإنه لا يستطيع أن يهرب من مراد الله تعالى له بالعقوبة في هذه الأرض. فإن قدرة الله تعالى محيطة به إحاطة كاملة شاملة. ومن بلاغة البيان أن استغنت جملة ﴿ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ عن ذكر العقوبة. فاستوفتها بمقابلتها بقولهم ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ التي تعطي معنى المعصية، وبالتالي تكون دلالة ﴿ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ ﴾ فليس بمفلت من قدرة الله تعالى عليه بما اشتملت من العقوبة. فأينما هرب فهو في قبضة الله تعالى في الأرض، فلا يستطيع أن يهرب ويفر منها. وفي هذا تعظيم لقدرة الله تعالى، ومعرفتهم بها، واستحضارها الذي يستوجب الانقياد والطاعة. مما يبين أن جنس الجن لا يستطيعون الولوج إلى السماء. إذ قرروا بهذا البيان لقومهم بأنهم من أهل الأرض، ولا مفر لهم من الأرض. بما يفيد قوة الوعظ والإرشاد، والتحذير والترهيب، والتزهيد لهم في أي فكرة تخطر ببال أحد منهم. بما يستوجب الانقياد الكامل لداعي الله تعالى. وهو: الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم يُخبرون قومهم بما يؤكد وقوع العذاب على من لا يستجب لداعي الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ فليس له أنصار ينصرونه بمنع عذاب الله تعالى عنه. فهو نفي كامل وشامل من أن ينال سبباً يمنع عنه مراد الله تعالى به. بما يفيد تحقق العذاب والعقوبة الرادعة، أي: لا تفكروا في أي سبب متعلق بمناصرة أحد لكم من الخلق. فعذاب الله عَزَّ وجل واقع على من عصاه.

ثم يؤكدون صفة من لم يُجب داعي الله تعالى بأنه واقع في الضلالة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ فأولئك الذين لا يستجيبون لداعي الله تعالى ﴿ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ أي: فاقد للاتجاه والوجهة الصحيحة التي ينجو بها في مسيرة حياته، لأنه في مسارات وطرق واتجاهات متنوعة من الظلام والضلال والتيه، الذي لا يوصله لنور الطريق، الذي هو نور الحق. بل ورد التأكيد بأنه في ضلال حقيقي، من غير شبهة فهو ﴿ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ واضح وظاهر وبين، فلا شبهة فيه. مما يفيد قوة البيان والوضوح، والحرص على نجاة قومهم بأقوى الحجج والبيان، وشدة الحرص عليهم، ببيان الحقائق التي لا مجاملة فيها. مما يبين أهمية النصيحة، وأهمية الدعوة للخير. فقد كانت الجن المؤمنة شديدة الحرص على قومهم، وسلامتهم. فليست الجن بأعقل من الإنس، مما يستوجب على جنس الإنسان أن يكونوا أكثر قدوماً للحق وقبولاً له.

﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٣٣ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٤ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥ ﴾

فبعد بيان ما كان من تأثر نفر من الجن، وما بذلوه من جهودهم في هداية قومهم، من أجل اتباع داعي الله تعالى، يعود الخطاب من الله تعالى إلى المعاندين بالمزيد من الدفع لهم على التأمل في مخلوقات الله تعالى، التي تدل على عظمة قدرة الله تبارك وتعالى على كل شيء، فلا يعجزه شيء مما يرونه معجز من البعث بعد الموت. فيقول تبارك وتعالى ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ يلفت سبحانه وتعالى عقولهم وتفكيرهم إلى ما يشاهدونه من خلق السماوات والأرض، بما يبين لهم أنه جَلَّ جلاله لا يعجزه شيء لكمال قدرته على كل شيء عَزَّ وجل. فبدأ سبحانه وتعالى بأعظم المخلوقات، وهي السماء. فقال سبحانه وتعالى ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ألم يعلموا بما رأوا بأعينهم خلق هذه السماوات المرتفعة والعظيمة في هيئتها وشكلها وصورتها ولونها وبُعدِها عن الأرض، وما فيها من النجوم والشمس والقمر والكواكب، وكذلك ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ التي

يمشون عليها، ويسعون فيها، وما أوجده فيها سبحانه وتعالى من الجبال والأودية والكثبان، والأنهار والمياه والزروع ﴿ وَلَمۡ يَعۡىَ بِخَلۡقِهِنَّ ﴾ ولم يعجزه سبحانه وتعالى عن خلقها ابتداء. أليس الذي خلقها بقادر على إعادة الموتى بعد فنائهم؟ أليس ﴿ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧىَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ أليس الذي خلق تلك السماوات والأرض العظيمة المهيبة من العدم بقادر أن يعيد خلقكم مرة أخرى من جديد بعد فنائكم؟

فإن الذي خلق السماوات والأرض التي هي أعظم من خلق الإنسان، دليل على كمال قدرته عَزَّ وجل، وبالتالي فإنه كما خلقها ابتداء فإنه قادر على أن يعيد خلقكم مرة أخرى. فإن كمال القدرة في خلق عظائم المخلوقات دليل كذلك على كمال القدرة في إعادة خلق الإنسان. فإين الاستحالة إذاً؟ فما هي إلا أوهام في عقول من لم يفكر في عظيم مخلوقات الله تعالى، وكمال تسخيره، وعظيم قدرته.

وقد ورد البيان بصيغة السؤال الذي يقرر كمال القدرة الربانية، وهو كذلك السؤال الذي يستثير الذهن نحو التفكير. وهو السؤال الذي يثير التعجب من حالهم أمام عظمة الكون. وهو السؤال الذي يستنكر عليهم تَغْيّيب عقولهم عن التأمل والاستدلال والاستنتاج والقياس. فإن كل عاقل يقول تصديقاً وإيماناً بأن الله تعالى له كمال القدرة على كل شيء. ثم يؤكد ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴾ جواب منه تبارك وتعالى مباشرة عن كمال قدرته عَزَّ وجل، لأنه ليس هناك جواب غيره يمكن أن يقوله الإنسان. فأورده عَزَّ وجل على الحقيقة التي لا يختلف فيها وحولها الإنسان العاقل، غير المكابر. وبدأ الجواب بحرف ﴿ بَلَىٰٓۚ ﴾ الذي أفاد إثبات وتقرير القدرة الربانية، والجزم بها، ونفي عدم القدرة بتاتاً. ثم أكد بأسلوب المبالغة أنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير ﴿ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو عزّ وجل لا غيره ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ هو لا غيره ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴾ فقد حصر سبحانه وتعالى كمال القدرة له بالضمير المتصل بنون التوكيد ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ المؤكدة لِمَا بعدها، وهو كمال القدرة الربانية. فأفاد مع ما بعده حصر وقصر كمال القدرة له وحده تبارك وتعالى. وأفادت دلالة ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴾ المبالغة في ذلك، بامتداد المعنى إلى أقصى غايته. فهو المبالغ في قدرته على خلق كل ما يريد، وبدون استثناء، من التكوين والهيئة والنظام والبهاء والجمال، والتسخير، وما يمنحه للمخلوق من القدرات، وغيرها مما يشاء سبحانه وتعالى، فليس لقدراته عَزَّ وجل حد محدود، بل هي مطلقة لا حدود لها.

وبالرغم من أن البيان جاء بصيغة السؤال إلا أنه قد أورد سبحانه وتعالى الجواب منه مباشرة ﴿ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴾ لأنه ليس هناك جواباً غيره يمكن أن يقوله الإنسان. فالذي خلق الشيء من العدم،

قادر على كل شيء، فليس هناك ما يمتنع عليه عَزَّ وجل، ومن ذلك إعادة تكوين الإنسان مرة أخرى؟ فإن الذي خلق ما هو أعظم من الإنسان وهي السماوات والأرض فإنه قادر بقدرته على إعادة عظام هذا الإنسان ورفاته، فإن الذي خلق العظيم من المخلوقات قادر على إعادة خلق الأدنى في الهيئة والمساحة والتكوين. فهو قياس يغرس الإيمان والتصديق لمن تأمل. إذ أنه دليل واضح على كمال القدرة، وانتفاء الاستحالة.

وقد بدأت المعالجة لعقولهم ولعقول غيرهم بالاستفهام الإنكاري، والمتضمن للتعجب من فهمهم وقياسهم الفاسد، إذ في قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ شد الانتباه، بتحريك البصر للنظر والتأمل، وشد بقية الحواس إلى السماء، وما فيها من عجائب خلقه وقدرته، وإلى الأرض، وما يلامسونه ويحسونه من مكوناتها، فشمل قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ الرؤية البصرية بالبصر، ورؤية البصيرة بالتأمل والتفكر. ألم يعلموا كمال القدرة له عَزَّ وجل من عظمة ذلك الخلق؟ فهي أداة الاستفهام المثيرة، التي تُعيد الفكر والتفكر في خلقه جَلَّ جلاله. مما يفيد أهمية لفت ذهن المتعلم إلى المحسوس، ليستدل به على غيره من المحسوسات والمغيبات التي يتم إخباره عنها، وما يتعلق بها من الإحياء بعد الموت، ليرتقي عقله في التحليل والاستنتاج والاستدلال.

فهو استفهام استنكار وتعجب من جهلهم، وتغافلهم عن المحسوسات الدالة على صدق ما يُخبَرُون به من المغيبات ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فإن من كانت قدرته قد خلقت السماوات والأرض أمامكم، وهي في غاية العظمة، فإنه من باب أولى أن يكون قادراً على إعادة الخلق بعد الفناء، فهو قادر على إعادة العظام واللحم الذي أصبح رفاتاً وتراباً، فأين وجه الامتناع، بل وجه القدرة ظاهر متحقق، ووجه الاستحالة منعدم البتة. فحكمكم حكم فاسد، لفهمكم وتصوركم القاصر الفاسد. فقد استنتجتم نتيجة فاسدة بناء على معادلة وتحليل فاسد من عند أنفسكم، فكان كفركم نتيجة لفساد معادلتكم الباطلة، مما يبين أهمية بناء العلم على مقدمات وحقائق صحيحة، ليحصل على نتائج صحيحة، وأن من أخطأ في التصور، يُخطِئ في التحليل، ثم يترتب عليه الخطأ في الاستنتاج، ثم يخطئ فيما يقرره. وهذا دليل على رقي منهج الإسلام في المعالجة، وفي المحاكمة وفق الدليل المشاهد والمحسوس، وأنه دين علم وعقل وحقائق، وليس دين جهل وأهواء وتخمينات فاسدة.

ومن دقة البيان أن الله تعالى قد أثبت قدرته بالقياس على ما يرون من عظيم الخلق والتدبير الذي يؤكد أنه لا شيء مستحيل على الله تعالى، بأن يُعيد خلقهم بمثل ما كانوا عليه ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ مما يبين أهمية التأمل والتفكر في مخلوقات الله تعالى، فإنها تزيد من الإيمان بالغيب، وتوسع مساحة الفكر، وتجلي الجهل عن العقل، وتنمي القدرة على الاستنتاج، والاستنباط، واستعمال مكونات وأساليب الفهم، من القياس، والمقارنة، والاستدلال

بالشيء على غيره، والاستدلال بدلالة المشاهد على ما يتعذر مشاهدته، وبالمحسوس على غير المحسوس، وغير ذلك من الأساليب التي توسع الفهم وتنمي العقل، وتوجهه إلى الحق والصواب، فترفع عنه الجهل، وسوء الفهم.

فمن تأمل فيمن أوجد المخلوق من غير شيء، فإنه قادر على إعادة هذا المخلوق كما كان، فليست الإعادة بمستحيلة على من أنشأ ابتداء، لينتفي بذلك الجهل المركب، من قياس قدرة الخالق على قدرة المخلوق، فهو حكم مناف تماماً للحقيقة. ولذلك أعادهم الله تعالى إلى ما يصحح فهمهم، والارتقاء بعقولهم وتفكيرهم وقياساتهم، حتى ينتفي عنهم الجهل المركب المتولد من القياس الخاطئ.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى الكشف عن حال الكافرين يوم الحساب والجزاء، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ واذكر لهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم يوم ينظر هؤلاء الكفرة إلى النار، وهم يُعرَضون عليها ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ وفي هذا شد الانتباه إلى المصير، لتحصيل الاتعاظ والانتباه، والترهيب من أجل مصلحتهم، بأن يتوبوا ويستقيموا. ويُقال لهم عند العرض على النار ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾ سؤال استفهام، يفيد تقرير الحقيقة التي كانوا ينكرونها في الدنيا ﴿ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أليس هذا الذي ترونه هو الحق الذي كنتم به تكذبون؟ فهو سؤال تقريري، وتوبيخ ولوم لهم، ووعظ لهم في الدنيا بما سيكون قبل أن يكون. فيجيبون بما قاله سبحانه وتعالى عنهم ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ فأجابوا بالإثبات والإقرار ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ الذي أفاد الإقرار والاعتراف، ولكن بعد فوات فائدة الاعتراف وثمرته وانقضاء وقته. فيقولون وهم مذعنين لربهم ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ أي: أقررنا يا ربنا بالبعث، ولكن بعد أن كانوا مستكبرين بكفرهم وعنادهم في الدنيا، فخضعوا وانكسروا، وتحطم تكبرهم أمام الحق في ذلك اليوم المشهود.

ثم يأتيهم الرد من الله تعالى بما يستحقون، لقاء ما كان من كفرهم وعنادهم، واستكبارهم على الحق في الدنيا ﴿ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فذوقوا ما تستحقون من العذاب، لقاء ما كنتم تكفرون به في الدنيا، فذوقوا العذب بما كفرتم به من التكذيب بالمرسلين، وما أنزل الله تعالى عليهم من الكتب والحجج والبراهين، ومنهم خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم، وما معه من القرآن، وما جاءكم به من الآيات.

وفي هذا توبيخ وترهيب، وقد أعطت دلالة ﴿ فَذُوقُواْ ﴾ الاستطعام والتذوق، إشارة وبياناً لأقوى الحواس التي هي حاسة الذوق، فباشروا الإحساس بالعذاب كما تباشرون تذوق الأشياء بحاسة الذوق.

فكأن شدة العذاب من قوته كشدة التأثر والتأثير التي تكون بحاسة اللسان والفم. فنسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة. وكل هذا هو لقاء كفركم، ومقابل عنادكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بسبب كفركم في الدنيا. مما يفيد أن عليكم أيها الأحياء الاتعاظ بما سيكون قبل أن يكون. وهذا من عظيم رحمة الله تعالى بالعباد، إذ يبين لهم عاقبة الكفر، والاستكبار. وأن لا ينقادوا إلى أهوائهم، بل إن واجبهم هو الانقياد للحق، والتواضع له. مما يبين أن الاستكبار أساس البطر، وأساس لجميع أنواع الباطل.

ثم يختم الله تبارك وتعالى سورة الأحقاف المكرمة بحث الرسول صلى الله عليه وسلم على الصبر فيما يواجه من كفر الكافرين، وعناد المعاندين، وحسد الحاسدين، متأسياً بأولى العزم من الرسل السابقين. فقال سبحانه وتعالى ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فيا أيها الرسول عليك بالصبر على قومك، وعلى غيرهم من الناس، إزاء ما تواجه من العناد، والبغي، والحسد، واستكبار المتكبرين ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ فليكن صبرك مماثل لصبر أولي العزم من الرسل، بما يفيد أن الرسل السابقين قد واجهوا مثل ما واجهت من الناس، فصبروا على ذلك حتى قضى الله تعالى الأمر. وقد حَمَلَت دلالة ﴿أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أنهم اتصفوا بقوة الصبر والتحمل، مع قوة العزيمة، والإرادة، والمبادرة بالعمل والطاعة، وعدم الضعف أمام مواجهة الأعداء، بل كانوا أولي همة عالية عظيمة. وقد تمسك عليه الصلاة والسلام بذلك، وكان خير النبيين وسيد المرسلين، بل سيد ولد آدم كما ورد في الحديث الصحيح (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من يُشق عنه القبر، وأول شافع وأول مُشفّع)[1] وفي تسميتهم بأولي العزم ما يدل ويفيد: المدح والثناء لهم من رب العالمين، والتزكية لهم بما يستحقون. وفيه كذلك إعطاء القدوة للمسلم، بأن يكون ذو عزيمة، وإرادة قوية في الحق وطلب الحق، وفي إعطاء الحق، وفي نشر الخير. وفي كل خُلُق حسن يبذل جهده ليكون متأسياً ومقتدياً بأولي العزم. وفيه أهمية التنبيه والتشجيع في الاقتداء بأصحاب الهمم العالية.

ثم يُوجه اللهُ تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأعظم النصائح في التعامل مع الآخرين، فقال عَزَّ جل ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أي: اصبر عليهم، ولا تستعجل لمن كفر وامتنع عن الدخول في الإسلام، بأن يُوقع ربك عليهم العذاب. ثم أوضح وبين سبحانه وتعالى حالهم عند حصول العذاب ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا

(١) مسلم، صحيح مسلم (١٧٨٢/٤) برقم (٢٢٧٨)

يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ فإن العذاب إذا وقع بهم، كما وعدناهم به في الدنيا، فإن حالهم حين وقوعه كأنهم ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾ فجميع أعمارهم التي قضوها في تمتعهم بالدنيا، فإنهم يستصغرون ذلك الزمن، فيرون أن حقيقة مدته عند رؤيتهم للعذاب، وكأنهم لم يعيشوا في الدنيا إلا ساعة واحدة من ساعات النهار. فيشعرون بقصر وتلاشي ذلك الزمن الذي عاشوه. فيشعرون بانطواء كامل الزمن في ساعة واحدة من ساعات النهار. فيشعرون بقصر مدة تمتعهم أمام هول العذاب. مما يفيد أن الشعور النفسي عند انقضاء الأجل يتصاغر وينطوي في ساعة واحدة من ساعات اليوم الواحد، وتنطوي معه المشاعر بما مضى من العمر. بما يفيد قوة الحسرة وشدتها. ليعطي هذا البيان الرباني أهمية الاتعاظ، فإن مشاعر المتعة تتلاشى، وتضمحل، ويتسارع فناؤها من النفس. فكان خيراً لهم، وخيراً لكل أحد ألا تفتنه الدنيا، فمهما طالت، فكأنها ساعة واحدة من ساعات النهار. فإنها موعظة مؤثرة، إذ تكشف للإنسان حقيقة الدنيا، وحقيقة مفاتنها، وحقيقة المشاعر. فنسأل الله تعالى السلامة وحُسن الخاتمة.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأن ما سبق هو ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي: موعظة واضحة مُبينة لكم حقيقة حال الكافر عندما يعاين انقطاعه عن متاع الدنيا وانتقاله إلى عذاب الآخرة، الذي لا يستطيع أن يتداركه بأي وسيلة كانت. مما يفيد أن هذا القرآن العظيم، وما فيه من البيان لهو بلاغ كاف لكم من ربكم تبارك وتعالى. وأنه حجة قائمة على العباد، فاغتنموا هذا البلاغ، باتباع ما فيه.

ثم يقرر سبحانه عظيم وكمال عدله، بقوله عَزَّ وجل ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فإن الله تعالى لا يُهلك بعذابه إلا القوم الذين خرجوا عن طاعة ربهم تبارك وتعال. مما يفيد حصر الهلاك وإيقاعه فقط على ﴿ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ وهم الذين خرجوا عن أحكام شريعة الله تعالى. لأن الفسق هو الخروج عن الأصل. فخرجوا عما يُوجب لهم النجاة إلى ما يُوجب لهم الهلاك. وفي هذا تشنيع لهم، بأن خصهم بالهلاك، بما يفيد شنيع وشناعة ما كانوا عليه. وبما يفيد أيضاً المبالغة في شناعة فسقهم، فقد تمادوا في الخروج عن الحق إلى أقصى ما يكون من فعل الخروج، بعد أن أيقنوا بأنه حق لا شك ولا مراء فيه. لأن الفسق يعني ويفيد الخروج من الشيء، فحالهم هو أنهم عرفوا الحق وتركوه، بالخروج منه.

وورد البيان بطريقة السؤال ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ سؤال تعجب يفيد التوبيخ والاستنكار لعقولهم إن كانوا يظنون أن الهلاك يعم الجميع، فإنه لن يكون إلا على القوم الفاسقين. فهو سؤال إثبات لحقيقة الهلاك، بأنه مقصور على من يستحقه، فإنه عليهم دون غيرهم، بما يفيد العدل، مع تهويل شأن الفاسقين. وهو سؤال تقريري، يقرر به تبارك وتعالى أن الذين يقع عليهم الهلاك هم القوم الفاسقين.

وفي هذا إنذار وموعظة وترهيب، وتربية علاجية، ووقائية للمجتمع، بأن عليهم الانتباه، والحذر من الفسق، وأن على مَن عرف الحق أن يلزمه، ولا يتابع شهواته والشيطان، وألا يغتر بمفاتن الدنيا، فإن زمن الحياة فيها لا يعادل غير ساعة واحدة من نهار يومه. كما يفيد هذا التخصيص حصانة أهل الإيمان من أن يكون حالهم مثل أولئك. مما يوضح أن هذا الدين هو دين عدل وعلم وإرشاد، وإحقاق حق.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الأحقاف. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.